مقالات

صحوة العقل

مجموعة من الباحثين والمفكرين

تحت إشراف :

هشام أباخو سهيلة لعياضي

ينار
للنشر والتوزيع والترجمة

صَحْوَة العَقْلْ

« مقالات »

مجموعة من الباحثين والمفكرين

دار ✧ ينار

صَـــحْـــوَة الـــعَـــقْـــلْ

عنوان الكتاب: صحوة عقل

تأليف: مجموعة من الكتاب

رقم الإيداع: 978-9969-9926-7-0

الطبعة الأولى: 2025.

الناشر: دار ينار للنشر والتوزيع والترجمة.

المدير(ة) العامة: رانيا بوراس.

تصميم الغلاف: حنان ميزو.

تحرير وتنسيق داخلي: هشام أباخو.

رقم الهاتف: 0654037608

الإيميل: yanareedition@gmail.com

العنوان: برج بوعريريج- الجزائر

جميع الحقوق محفوظة ©

إهــداء

إلى القارئ الذي لم يسلّم عقله،

وإلى المتعب من صخب الآلات وضجيج الشعارات،

نُهدي هذهِ الصفحات، علّها تفتح نافذةً على سؤالٍ نقيّ.

تمهيد:

يأتي هذا الكتاب الجماعي المعنون بـــ "صحوة العقل" الذي تشـــكل محواه 8 مقالات، ليســـهم في إثراء النقاش الفلســـفي النقدي المعاصـــر حول تحديات الإنســـان في ظل التحولات الكبرى التي يشـهدها العالم، فنحن اليوم أمام عصـرٍ تتقاطع فيه الأسـئلة الوجودية مع التغيرات التكنولوجية، وتتشـابك فيه الهويات، وتُطرح فيه قضـايا المعنى، القيم، والمستقبل بإلحاح غير مسبوق.

يتضـمن هذا العمل مجموعة من المقالات التي كتبها باحثون ومفكرون شـــباب، اختاروا أن يخوضـــوا في مســـائل راهنة تتعلق بـالعقل، التكنولوجيـا، الهويـة، الأخلاق، الـدين، وغيرهـا، محـاولين إعادة النظر في الكثير من المسلمات الفكرية التي استقرّت في وعينا الجمعي.

في الفصـــل الأول، يفتتح الكاتب هشـــام أباخو الكتاب بمقال "نقد العقل التكنولوجي"، حيث يسـلّط الضـــوء على مخاطر اختزال الإنســـان في أدواته الرقمية، متســـائلاً عن مآلات التقدم التقني حين ينفصـــل عن القيم الإنســـانية. أما هبة بولنوار، فتناقش في مقالها "مشـــكلة الهوية في العصـــر الرقمي" كيف أصـــبحت الذات مهددة بالذوبان في عوالم افتراضية تشكّلها الخوارزميات أكثر مما يشكّلها الوعي الذاتي. وتأتي أحلام سـارة بمقال "عقل تحت حصـار ناعم"، حيث تضـــعنا أمام إشـــكاليات الهيمنة الإعلامية والرقمية، وتكشـــف كيف يُصـــاغ وعينا اليوم بلطفٍ لا يخلو من القســـر. وتســـائل كوثر ملوك في مقال "التعليم والتنوير: هل تعزز مناهجنا التفكير النقدي؟" علاقة المدرســـة بإعداد العقل الحرّ، منتقدة المناهج التقليدية التي

تكرّس التلقين وتهمّش روح التساؤل. أما حسام الذهبي فيقدّم قراءة معمقة في "نقد نيتشه للأخلاق التقليدية"، متوقفاً عند اللحظة التي تقاطع فيها الفلسفة مع إرادة القوة، والبحث عن قيم جديدة تتجاوز أخلاق القطيع. في حين تكتب خديجة زكري عن "الإنسان بين قسوة الواقع وعبثية الوجود"، متأملة في مصير الكائن البشري الذي أرهقته الأسئلة دون أن يجد لها إجابات نهائية. ويأتي أحمد عبد الحكيم محمد علي ليقارب في مقال "بين الواقع والخيال" حدود التجربة الإنسانية كما تنعكس في الأدب والفكر، مستعرضاً التوتر القائم بين الحقيقة والوهم. وأخيراً، يختتم يوسف أيت المعلم الكتاب بمقال "تأملات في الدين والمجتمع"، حيث يناقش العلاقة المتشابكة بين الإيمان والمجتمع، والرهانات الثقافية التي تحكم هذه العلاقة اليوم. والشيء الجميل أن هذا الكتاب خطّت حروفه مجموعة أقلام من ثلاث بلدان عربية، المغرب، مصر والجزائر.

إن "صحوة العقل" ليس مجرد كتاب، بل دعوة صريحة للتفكير، وللعودة إلى الذات بوصفها مشروعاً لم يكتمل بعد. هو مسار من النقد والتأمل، يروم إثارة الوعي وخلخلة اليقينيات في زمن طغى عليه الاستهلاك، والتشتيت، واللامبالاة.

نقد العقل التكنولوجي

هشـام أباخو: ***باحث وكاتب مغربي متخصص في الفلسفة، ولد في مدينة بني ملال عام 2006. يجمع في كتاباته بين الحس الأدبي، من خلال تجربته في الشـــعر والمقالة، والعمق الفكري الناتج عن تخصصه الفلسفي.***

تقديم :

لا ريب أننا اليوم نعيش في عصر عرف من التطور والتقدم ما كان يعتبر قبل قرنين من الأن حُلما ويوتوبيا، فكل المجالات والتخصـــصـــات شـــهدت تدخلاً تكنولوجياً ورقمياً كبيراً، اننا في العصر حالي نعيش ثورة رقمية ومعلوماتية عملاقة وعظيمة، وهذا شيء يدعو إلى التفاخر، فالعقل الإنساني وتجاربه هي التي أوصلتنا إلى هذا المستوى السامي من التقدم والازدهار العلمي والتكنولوجي.

لقد تغيرت حياة الإنســان وانقلبت رأســاً على عقب، وعاد ليحتل " المركزية البشــرية - Anthropocentric" من جديد مع الثورة العلمية والتكنولوجية، ولكن في هذه المرة ليس بالمعنى البالِ الاســتلاء والاســتلاب والغلبة، بل على العكس، نحن اليوم نعرف

بقيمة الموجودات والكائنات الأخرى، ونعرف بحقوقها اتجاهنا، وأنها ليست للاستغلال والاستمتاع بأنانية وانتهازية، اليوم نعيش محصول أفعالنا اللاعقلانية السابقة، وفي نفس الوقت نحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه، وتبديل ما يمكن تبديله رغم صعوبة الأمر، ولعل العقلية البشرية هي التي تدعو وتطلب هذا التحول والتغيير.

إن عقل اليوم هو عقل تكنولوجي مطلق، فما هو العقل التكنولوجي ؟ إنه عقلنا، وفي نفس الوقت ليس عقلنا، كيف ذلك ؟ ينقسم العقل التكنولوجي إلى لفظتين " عقل" وهو القدرات العقلية التي تمكن الإنسان من التفكير والتحليل والانتقاد والاستدلال [...] واتخاذ القرارات، وهو أداة أساسية وضرورية لفهم العالم، وتأكيد الوجود، ويشمل العقل البشري عدة وظائف رئيسية كالذاكرة والوعي [...]، هذا هو عقل الإنسان الفطري والحقيقي. أما لفظة " تكنولوجيا" فهي كلمة يونانيّة الأصل، تتألّف من مقطعين، وهما: "تكنو"، التي تعني فن، أو حرفة، أو أداء، أمّا المقطع الثاني فهو "لوجيا"، أي دراسة، أو علم، وبذلك فإنّ كلمة تكنولوجيا تعني علم المقدرة على الأداء، أو التطبيق[1].

[1] What is Technology? , www.wisegeek.com, Retrieved 6-4-2019. Edited.

العقل التكنولوجي، في سـياق الحاضـر، يُشـير إلى تفكير الإنسـان في عصـر التكنولوجيات الرقمية والمعلوماتية، والطريقة التي يسـتخدم بها هذه التكنولوجيا في التفكير والإبداع والتحليل والتفاعل.

ويمكن تأويل العقل التكنولوجي بالعقل الرقمي، أو الآلي، أو التقني، أو الآداتي، وغيرها من الألفاظ المختلفة لكنها تحتمل لنفس الدلالة.

للتكنولوجيا الرقمية وجه مُظلم، عكس ما يُروج له، فإن كانت تساعد العقل على الوصول السهل والسريع إلى المعلومات، وكذلك تعزز التواصل وتوفر الوقت والطاقة، كما تساعد في التعليم والطبخ والطب ...، أي أنها شمولية، لها دور في كل التخصصات والنطاقات، زيادة أنها تحسـن من الإنتاجية، وهذا كله صـحيح، إلا أننا أغفلنا سلبيتها، فلكي نحصل على تلك الأشياء نفقد أشياء أخرى، أشياء تميزنا كبشر، صفاتنا، هويتنا، عقلنا.

لقد احتل العقل التكنولوجي الرقمي محل العقل الإنسـاني الفطري الطبيعي المُفكر، وبهذا أصبح الإنسان آلة وتقنية، مدام عقله يعتمد على الآلة والتقنية في كل شـيء، ويسـتمد منها نمط عيشـه وبهذا صح قولنا بمفهوم " العقل التكنولوجي ".

في هذا المقال سنعرض بعض الأبعاد الخطيرة للتكنولوجيا الرقمية، وسنبين كيف أغفل العقل البشري هذه الأبعاد، وننتقده لدخوله في قوقعة التشيؤ واغلاقه على نفسه ونسيانها، وفقدانه صفاته الفكرية كعقل مفكر مبدع ناقد محلل، واكتسبه عقلاً هو ليس له، عقل لا يُناسبه ككائن حي، عقل آلة، فيوماً بعد يوم نتعمق في أغوار التكنولوجيا، تتعمق هي الأخرى في أغوارنا، تتدخل في حياتنا، تهيمن وتسيطر على جزء كبير منا إذ لم نقل كامله، لقد أصبحنا نعتمد على الوسائل التكنولوجيا بشكل كبير ومتزايد، إننا نستدعي تدخل الآلة حتى في أبسط المسائل، الآلة تعيش معنا تُشاركنا أنفاسنا ونبضات قلوبنا، فلم تعد لنا بذلك خصوصيات، لقد ذابت هويتنا، واختفى جوهرنا كإنسان. فهل نستطيع التخلي اليوم عن التقنية؟ أمر مستحيل! فما السبب؟

الإنسان الراهن عرف إدماناً مختلفاً عن باقي الادمانات السابقة، من مخدرات وقِمار، إنه يعاني اليوم من إدمان يُعجَزُ عن تشخصيه أو علاجه، هذا هو " الإدمان الحديث ".

أولاً : **متلازمة تشتت الذهن الرقمي**

علينا أن نقف لبرهة لنتأمل هذا الذي نحن عليه اليوم، لكننا لا نستطيع، التأمل يحتاج لسكينة وهدوء، وإشعارات الهاتف

والموسـيقى الصـاخبة والبرامج الركيكة لا تتركنا لا لنهدأ ولا لنتأمل، الاشـعارات المتتالية، والانغماسـات في المحتوى الرقمي الذي لا فائدة منه، كالألعاب وتطبيقات الرقص البديئة تجعلنا نعيش حالات من التشـتت الذهني والصـعوبة في التركيز على الشـؤون الخاصـة والعامة الواقعية، وكذا حالات من التعب العقلي والجسـدي الذي يصيب الإنسان من كثرة استعمال الشاشات والبرامج الرقمية، وكل هذا يُجمع تحت مفهوم " متلازمة تشتت الذهن الرقمي ".

انظروا كيف نعيش حيـاة من الهلع والخوف والتوتر، لا نعرف ماذا أصـبنا، لقد فقد جيل ما بعد الألفية عقله (المواطن الرقمي)، جن جنونـه، أنظروا كيف يعيش الأوهـام في عـالم افتراضـي يحلم ويَبني ولا شـيء يُبني، اعتماده على التكنولوجيا في كل شيء جعله يفقد تركيزه حتى في أبسط المسائل، فلا يستطيع حل معادلة رياضـية من الدرجة الأولى أو حتى أن يتذكر مرادف كلمة، الإنسـان الحالي فقد شـخصـه وهويته ودخل مرحلة من التشـيؤ والاغتراب مع الآلة، وبات مهدداً بخطر الزوال الكامل.

ثانياً : **العلاقات الاجتماعية والصحة النفسية**

علاوة على ذلك، تؤثر التكنولوجيا -الرقمية- على العلاقات الاجتماعية وكذا على الصـحة النفسـية للأفراد، فتجعلهم يعيشـون

علاقات سطحية خالية من أي شعور أو إحساس واقعي بعاطفة حقيقية أثناء المحدثات، عكس العلاقات الواقعية التي تكون كلها إحساسات حقيقية، بغض النظر عن نوعيتها، وأيضاً تُعد مهمة لاكتساب المهارات الحياتية وقوة الشخصية، صحيح أن الإنسان يتأثر إن شهد مشهداً ما يُثير عواطفه على مواقع التواصل الاجتماعي مثلاً، ولكن من يضمن أن المشهد غير مفبرك والغاية منه إثارة الرأي العام والعبث بعواطف الأخرين واستغلالها لأغراض سياسية واقتصادية، وهذا صحيح بعد كل الوقائع التي شهدنها في الآونة الأخيرة. فعلى الإنسان أن يضع حد أمان بينه وبين شتى الوسائل التكنولوجيا، خصوصاً الرقمية، فالحقيقة فيها شبه غابرة، والاحتيال والتلاعب بالرأي العام وعقول الناس ومشاعرهم كائن بدون شك، ومن المفروض على الإنسان أن يشك ويحلل وينتقد، لا أن يتلقى فقط، وأن يبتعد ما أمكن عن العلاقات الرقمية العابرة المستنزفة للطاقة العاطفية.

في مفهوم " وسائل التواصل الاجتماعي" نوع من التضارب، فهي تبني مجتمع أوهام وتهدم مجتمع الحق والحقيقة، فتَرى الناس يبتسمون لشاشات ويبكون لها، مشاركين أحاسيسهم معها، متناسين الواقع، غير مكترثين للمآسي الإنسانية التي هي أولى بالحزن وغير فرحين لفرح الأخرين، فإذا كانت هذه

التكنولوجيا قد حولت العالم إلى قرية صـــغيرة كما يقولون، فإنها فعلت ذلك في عالم افتراضـــي فقط، أما في الواقع فقد أحدثت نقيض ما قيل، لقد جمعتنا التكنولوجيا على الشـــاشـــات وفرقتنا على أرض الواقع، بمعنى أنها قربت المســـافات لكنها زادت من الهوة الفاصـــلة بين البشر.

أما بالنســـبة للصـــحة النفســـية، فقد اســـتُنزفت هي الأخرى بواسطة مواقع التواصل الاجتماعي، خصوصـاً في صفوف الفقراء والمراهقين، فجعلت من أحلامهم جحيمـاً، التـافهون أغنيـاء مـاديـاً، وبدعم من الحكومات تمرر ســياســات شــيطانية مخفية وراء تفاهة المحتوى وفخامة المظهر.

ينقسـم الفقراء إلى ثلاثة أقسـام؛ الأول يسـيل لعابه أبداً وهو يشاهد ضـآلة التافهين متتبع بعينيه أجساد النساء و أموال الذكور من وراء الشـــاشـــة، مســـاهماً لهم في جمع أرباح إضـــافية، والآخرون يحـاولون تقليد هؤلاء التـافهين في تفاهاتهم بدون جدوى فتصـــبهم الخيبـة والإحبـاط، فيســـبوك مثلاً صُـــمم لاســـتغلال ثغرات في ســيكولوجيا الإنســان، بإعطائه دفعة صــغيرة من الدوبامين في كل مرة يتلقى فيها تفاعلًا أو إعجابًا[2]، وباســـتمرار الوضـــع على هذا

[2] باركر، شون، (أول رئيس لفيسبوك)، مقابلة مع Axios، نُشرت في نوفمبر 2017.

النحو يكتسب هؤلاء نوعاً من الهشاشة النفسية بسبب ما يشاهدونه من أنعم ومتع، وبعدهم عنها في الواقع دون استطاعتهم الوصول إليها.

النوع الثالث من الناس هو الذي يعيش " الوحدة الرقمية "، بعيداً عن الواقع، مُغترباً، يعيش نوعاً من التصوف والاعتزال، لكن ليس فيما يرضي الله، بل فيما يغضبه، إن حياة الاعتزال تلك ما هي إلا تدمير لخلايا الدماغ وإفساد للروح واستقبال للأمراض النفسية والجسمانية، فالوحدة الرقمية تجعل من الفرد المصاب بها عالة على المجتمع، جالس أمام الشاشة 24h/24 دون المشاركة في الحياة الواقعية والعملية، وهذا يعد نوع من الفشل، والذي نرصده في صفوف المراهقين بشكل متباين.

ثالثاً : **استنزاف الوقت ومحو الهوية**

كل ما ذكرناه من أمراض نفسية وضعف في العلاقات الاجتماعية راجع إلى الإفراط في استعمال الوسائل الرقمية والتكنولوجية، فوقتنا سلبته منا التقنية كما سلبت هويتنا، وبالتالي نحن لا نعيش حياتنا وإنما نراقب حياة الأخرين عبر الشاشات ناسيين أن العمر لا يتعوض وأن الأيام التي تذهب لا يمكنها أن تعود. فالهاتف، الكومبيوتر، التلفاز [...] كلها تقنيات لإلهاء الشعوب

وتغييب وعيها عن تقرير مصـــيرها وعيش حياتها، فكما تســـتعمل المخدرات تســـتعمل التكنولوجيا للاســـتغراق في الأحلام بعيداً عن القضـــايا الهامة وإن اختلفت الطرق، فالتقدم التكنولوجي لا يلغي التوحش، بل يغطي عليه بمظاهر حضرية زائفة[3].

تجاوز ســـاعتين في تصـــفح الانترنت، في أمور تافهة يُعد بلاهة وتبذير للوقت والجهد والمال، فالعاقل لا يقضـي حتى نصـف سـاعة أمام جهاز إلا من أجل غاية مهمة وضـرورية، أما فعل ذلك لا لشـــيء ســـوى للهو فهذا غير مقبول لأن الانترنت وُجد من أجل التواصـل ومشـاركة المفيد لا الضـار والمؤذي، لذا وجب اسـتغلال التكنولوجيا بشكل مسؤول.

رابعاً : **بين سهولة البحث وصعوبة التفكير**

يعتمد إنســـان اليوم بشـــكل كبير على محركات البحث السـريعة، وكذا بوتات الذكاء الاصـطناعي (برامج الدردشـة الآلية)، وهذا ســـيء نوعًا ما، إذ أن القراءة عبر الإنترنت تؤدي إلى فهم أقل مقارنةً بقراءة الصـحف والكتب المطبوعة [4]، وهذا يؤثر بشـكل ســـلبي على عقولنا فلا يترك معرفنا تنمو وتتطور. فما نقرأه على

---

[3] عدوان، ممدوح، حيونة الانسان، دار ممدوح عدوان للنشر، 2004

[4] فرح، عبد الله (2023)، قراءة في كتاب السطحيون: ما تفعله شبكة الإنترنت بأدمغتنا، ميسلون للثقافة والترجمة والنشر

الورق يثبت في الذاكرة بالفعل، عكس ما نقرأه على شاشاتنا، العامل الأول في نسـيياننا لما قرأناه إلكترونيًا هو عدم تركيزنا بسـبب ما تتعرض له أعيننا من إشـعاع الشـاشـة القوي والمجهد للأعصـاب، وأيضـاً المعرفة يجب أن تُجمع من المصـادر الموثوقة، مثل الكتب والمجلات، أما بالنسـبة للمعرفة على الإنترنت، فيمكن للعامة أن يصبحوا أشبه بعلماء بكل سهولة، وبرغم أن محركات البحث تمتاز بالسـرعة، لكنني لا أظنها تمتاز بالدقة، وهذا ما نلاحظه من خلال الأخطاء الفادحة والمعلومات المغلوطة التي تقدمها لنا برامج الذكاء الاصطناعي، بالإضافة إلى الموسوعات التي يمكن لأي شخص أن يتدخل فيها ويضـيف ويغير كما يشـاء دون فرض رقابة أو قيود عليه. أيضًـا، الانتشـار الهائل للأخبار الزائفة والمعلومات المضـللة على الإنترنت، والتي تُنشر بدون استناد إلى مصادر موثوقة، ودون تعريض هذه المعلومات إلى شك أو نقد. في النهاية، يحتفظ الإنسـان بها، مما يسـاهم في انتشـارها بطريقة أو بأخرى رغم كل ما تحمله من أخطأ.

تأثرت حياتنا بالتكنولوجيا فلم نعد نسـتطيع الاسـتغناء عنها، فمن منا يسـتطيع القيام بعمل دون أن يسـتدعي تدخل الآلة والتقنية؟ لقد فقدنا القدرة على التركيز، كما فقدنا القدرة على التفكير والتحليل والانتقاد. مات العقل النقدي في الإنسـان، ولم يعد سـوى مسـتقبل

يتلقى أي شـيء يصـله من خلال شـاشـاته ويحتفظ به، بدلاً من أن يكون شاكاً فيه وناقضاً له.

النشـاط الإنسـاني أصـبح شـبه جامد، لا يتحرك، الشـاشـات أصـبحت وسـيلة لتقييد الإنسـان الذي فقد إنسـانيته، والوسـائط الإلكترونية تؤثر سـلباً على العقل البشـري، مثل انخفاض الفهم والتركيز، وقلة القدرة على التحليل والتفكير الإبداعي. هذه الوسـائط الإلكترونية تعمل على تشتيت فهمنا واستيعابنا للأشياء[5]، إن مصير البشـرية اليوم في يد الآلة، فنحن نسـتخدم الأدوات، ثم تصـبح الأدوات تسـتخدمنا،[6] وهذا أمر قد لا يبدو مقبولاً في نظر عشـاق التكنولوجيا الرقمية والمراهقين، لكنها الحقيقة. إننا كبشر عاقلين من الضـروري علينا إعادة التقييم ومراجعة هذه التكنولوجيات الرقمية، وتغيير ما يجب تغييره وترك ما يجب تركه.

وهكذا، فإن التكنولوجيا الرقمية عامةً، والإنترنت بشـكل خاص، تؤثر بطريقة سـلبية على العقل البشـري، فتحد من تفكيره النقدي، وتتصـدى لقدراته على التركيز والفهم، وتشـتت انتباهه، وتجعله يعيش الوهم ولا يركز على حياته العملية. كما أن الحصول

---

[5] المصدر السابق نفسه

[6] Postman, Neil, Technopoly: The Surrender of Culture to Technology, Vintage Books, 1993, p. 7

السـريع والسـهل على المعلومات من الإنترنت يقتل العقل الفكري ومهارات البحث، ويؤدي إلى تراجع النشـاط الإنسـاني ويزرع الخمول. علاوة على أن معلومـات الإنترنـت لا تكون دقيقـة وذات مصداقية دائماً.

خامساً : **الذكاء الاصطناعي وأفول الابداع**

فيما مضـى كنا نظن أن التكنولوجيا سـتساعدنا في حل مشاكلنا وتوفر لنا الوقت من أجل ممارسة حياتنا اليومية والاستمتاع بهـا برفـاهيـة، أن نمتلـك الوقـت لنهتم بـالعلوم والفنون والأدب والرياضة وغيرها، كنا نعيش في عالم من الطوباوية المفرطة.

الإبداع شـيء ضـروري لدى الإنسـان، أن يفكر فيبدع في الطبخ والرسم والكتابة والطب [...]، فيصـنع ويُنتج أشـياء جديدة لم تكن في الوجود فيكشف عنها ويُظهرها إلى العلن، حب الاستكشاف والاستطلاع وكذا الضرورة يدعون الإنسانية للإبداع، وفي العصر الحالي أبدع الإنسـان ما يسـمى " بالذكاء الاصـطناعي " والذي قلب العالم رأسـاً على عقب، لقد اشـتدت المنافسـة بين الشـركات وانفقت الدول والحكومات ملايير الدولارات من أجل هذا المشـروع، الحلم / الكابوس.

من مهام الذكاء الاصطناعي أن يقوم ببعض وظائف الإنسان عوضاً عنه، فيبقى للإنسان بعض الوقت ليستمتع بحياته ويُبدع ويُنتج، ولكن ليس هذا ما حدث، لقد تحول الأمر من رغبة إلى كارثة، انقلب السحر على الساحر، ليعوض الذكاء الاصطناعي الإنسان بالكامل في شتى المجالات الحيوية، لقد استولت التكنولوجيا على الانسان وسلبت منه أدواره الرئيسة، إذ توقع الملياردير الأمريكي بيل غيتس، أن التطورات في مجال الذكاء الاصطناعي ستُقلل بشكل كبير من دور العنصر البشري في العديد من المهام التقليدية مثل الطب والتعليم، وأن هذا التحول الجذري قد يحدث في أقل من 10 سنوات[7]، ونحن نرفض قصعاً مسألة تدخل التكنولوجيا الحديثة في المجالات الفكرية الأدبية والفنية [...]، فهذه مجالات تحتاج إلى عقل إنسان متخصص مُفكر مُبدع، ولكننا نستطيع أن نفسح لها المجال لكي نستفيد منها بشكل طفيف طبياً وأمنياً، لأنه إذ تدخلت التكنولوجيا بفروعها في كل الميادين والمجالات فما الذي سيبقى للإنسان لفعله غير الانقراض.

موقفنا لا يُحسد عليه، إننا في مرحلة نسميها " بمرحلة موت الإبداع "، والجاني هو الإنسان والضحية هو الإنسان نفسه،

[7] غيتس، بيل، الذكاء الاصطناعي بديلاً للأطباء والمعلمين خلال 10 سنوات، منصة الخليج ، 28 مارس 2025

وقد صدق نيكولا تسلا في قوله : " سيعيش الإنسان ليرى أشياء من صـــنع الإنســـان يعجز عقله عن تصـــورها "، وفعلاً تم تعويض الإنسان بالآلات في كل المجالات والتخصصات، فلم يبقى للإنسان أي دور، ســـوى أن يعـاني البطـالـة والفقر والتهميش والملـل، ولمواجهة هذه الآفات لم يحرك الإنسان ساكناً، فقط أنه حشر رأسه بين الشاشات ليل نهار مخَدرًا مدمِراً صحته النفسية والجسدية، فلا حل ولا دواء لهذا الدّاء ســـوى إعادة الآلة إلى العدم، وهذا أمر مستحيل في الوقت الرّاهن، فالعالم كله ألفها، وبها يتحرك، وبدونها ينهار اقتصاد الدول، وتنهار الأمم.

ســـبـب أخر لطغيـان التكنولوجيـا وهو الاعتمـاد المفرط للإنسان عليها، وهذا بالفعل مبرر على محدودية الفكر والإبداع عند الإنســـان المعاصـــر، وكذا تهوره وإهماله لذاته وإغفاله عن تأمل أغوار العالم وتفاصيله، إضافة إلى عدم إعطاء فرصة لعقله المفكر للتفكير خارج الصـــندوق الذي وضـــعته داخله الأنظمة المتوحشـــة واللاإنسـانية. وبهذه الطريقة تؤثر التكنولوجيا على الخيال والتخيل، وعلى الفكر والتفكر، فهي تتيح لك أدوات وبرامج رقمية فيها حلول جاهزة لجل المشـاكل، فتقتل التحفيز العقلي والابتكاري الخارج عن المـألوف، وتُبيد الأفكـار الإبـداعيـة قبـل خلقهـا حتى، التكنولوجيـا

الحديثة تُنتج نمطًا من التفكير يخدم النظام القائم، ويمنع الأفراد من التفكير النقدي المستقل[8].

وبهذا رضي الإنسان الحالي بالمسلمات واكتفى بها، فلم يعد له رأي أو وجهة نظر، كما أنه رضي بأوضاعه المعيشية القاهرة بعد أن استولت التكنولوجيا على مكانه داخل المعامل والأسواق، وبهذا فالتقدم التقني لم يحرر الإنسان، بل زاد اغترابه عن ذاته وعن الأخرين[9].

لا ننسى أن الذكاء الاصطناعي محدود، فهو يعتمد على المواقع والصفحات الإلكترونية التي أنشأها الإنسان وكتاباته فيها للوصول إلى إجابة عن السؤال المطروح، ولولا أن الإنسان لم يفكر بعقله ويضع تلك المعلومات على الإنترنت، لما استطاع الذكاء الاصطناعي الولوج إليها ليقدمها لنا، هي نفسها في الجوهر، لكن بصيغة إنشائية مختلفة، أي أن أفكار الذكاء الاصطناعي ومعلوماته ما هي إلا بشرية في الأصل، ومع ارتفاع عدد مستخدمي الذكاء الاصطناعي فلن يكون هناك تطور أو تقدم أو تجديد علمي

[8] ماركوز، هربرت، الإنسان ذو البُعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1988، ص. 46.

[9] فروم، إريك، الهروب من الحرية، ترجمة الدكتور محمد الحاج سالم، المنظمة العربية للترجمة، 2010، ص102

ومعرفي، فالمعارف السـابقة نفسـها هي التي تدور في حلقة مفرغة بصيغ مختلفة.

هناك أمر جدير بالإشارة، وهو مسألة " الذكاء الروحاني"، وهو نوع من الذكاء الاصـــطناعي مبرمج على أن يكون شـــفيعًا للإنسان عند الله، أو أن يكون هو نفسه إلهًا، مقابل اشتراكات شهرية تدردش معه فيتوهم لك فعلاً أنه شـــفيعك وأنك لن تدخل النار مدام سـيشـفع لك مراراً وتكراراً وهذا سـيشـجعك على ارتكاب مزيد من الرذائل والشـرور، وهذا يذكرنا " بصـكوك الغفران " التي كانت تُباع في الكنيسة (الكاثوليكية) خلال العصور الوسطى (العصور المظلمة). وفي هذا السياق، يصبح صائباً قول كارل ماركس : " أن التاريخ يعيد نفسه عبر مرحلتين، الأولى كمأساة، والثانية كمهزلة." فأهلًا بنا في عصر المهزلة.

سادساً : **الإدمان الرقمي**

يؤثر الإنترنت على العقل البشري بشكل سلبي كبير لدرجة أن يجعل الإنســـان عبدًا لـه، فيحولـه إلى مدمن، لكن ليس على الأنترنـت ذاتـه، بل على مـا يقدمـه من خـدمـات، متع، وإشـــبـاع للرغبـات، مثـل المحتوى الجنســـي، الألعـاب الإلكترونيـة، برامج القمار، والمحادثات الطويلة الوهمية. فيخضع الإنسان لغرائزه، مما

يؤدي إلى تدمير ذاته وتفكك علاقاته الاجتماعية (الزوجية والأسرية)، فكم من شخص فقد عقله بسبب إدمان القمار، وكم من زوجين افترقا بسبب تسريب صور شخصية [...].

في خضم هذه المآسي، تجني الشركات أرباحًا طائلة، حيث تأتي أرباحها بالدرجة الأولى من المحتوى الجنسي والقمار، وبالدرجة الثانية من الإعلانات، وبالدرجة الثالثة من الكوارث المصطنعة، وهنا نتحدث عن تكنولوجيا الحروب، حيث يتم تصنيع الأسلحة المتطورة الفتاكة التي تُباع بمليارات الدولارات، ولن يكون لها سوق إلا إذا تم خلق الأزمات والتوترات بين الشعوب، حتى في دول كانت مسالمة من قبل، ويعتبر المشرق والمغربي العربي أكبر مستورد لهذه الأسلحة.

سابعاً : **الانحدار الاخلاقي في زمن التكنولوجيا**

بالعودة إلى الأزمة الأخلاقية التي أصابت إنسان اليوم، إذ لم يعد هناك فاصل بينه وبين أدنى الحيوانات مرتبة، بالفعل فقد الإنسان حتى تلك الشعرة الرفيعة التي كانت تفصله عن الحيوان من عقل وضمير، في مرحلته هذه، أصبح يتخذ التافهين قدوة، بل ويشارك في الترويج ونشر تفاهتهم بوعي منه أو دون وعي، وللأسف، لم يقتصر الأمر على تمجيد التافهين، بل تحول إلى

محاربة العلماء والمفكرين ومعارضـــتهم. فكيف إذن ســـنتقدم بهذه العقلية الفاسدة المُنحطة؟

السـبب الرئيس لانتشـار اللا أخلاقيات في صـفوف شـباب ومراهقي هذا الجيل الناشـئ (جيل ما بعد الألفية) راجع للاكتراثية الأباء التي يبدونها اتجاه أبناءهم وبناتهم، وهذا أمر مقلق يدعوا إلى تدخل سـريع سـواء من طرف الجهات القانونية والسـياسـية العليا أو من طرف الاباء أنفسهم، فالأمر أصبح كارثياً وسلوكيات الأبناء في الانترنت له تأثير واقعي على حياتهم العملية في ظل انتشـار المثلية والحركات النســـوية والإلحاد وغيرها من الحركات والتنظيمات الفاسدة والمُفسدة والتي تجمع تحت مفهوم " الخروج عن الفطرة "، وللحد من هذه الرذائل وجب وضـع سـن قانوني لاسـتخدام الهاتف، وأيضـاً حظر التطبيقات والمواقع غير المرغوب فيها أخلاقياً ودينياً، فالتكنولوجيا بدون بُعد أخلاقي تتحول إلى وحش يلتهم الإنسـان ذاته [10].

التكنولوجيا اسـتطعنا بها أن نطور حتى في الإجرام، فاليوم لدينا الجريمة الالكترونية والتي هي نشـاط إجرامي يسـتهدف جهاز الكمبيوتر أو شـبكة الكمبيوتر أو جهازاً متصـلاً بالشـبكة، وتحاول

[10] المسيري، عبد الوهاب، حوار في كتاب سؤال المعرفة، إعداد: حسن أوريد، منشورات الزمن، العدد 26، 2005، ص. 39.

اســـتخدامهم[11]، في الآونة الأخيرة انتشـــر هذا النوع من النشـــاط الاجرامي (المتطور)، كـالاســـتفزاز والتهديد، والتنمر والتحرش، والاسـتلاء على المعلومات الشـخصـية وقرصـنة الحسـابات البنكية وغيرها من اللا أخلاقيات، وفي المواقع الســـوداء التي يصـــعب اختراقها يكون الإجرام أكثر ســوءاً، حيث يُباع الرقيق والأعضـــاء البشرية، ويقتل الناس ويعذبون على المباشر، وللحماية والوقاية من مثل هذه الأمور خُلق الأمن السـيبراني، ولكنه هو أيضـــاً يعاني من مشـــاكل وهفوات، فهو منتهك بدوره لخصـــوصـــيات الناس بحجة الحماية، ويحد من الاســـتخدامات الحرة لبعض المواقع، نهيك عن الثغرات التي تحدث فيه، وكل هذا مقلق، مما يجعلنا نناشـــد إلى تطوير قوانين وسـياسـات جديدة تحمي خصـوصـيات الإنسـان على الانترنت وكذا من الغزو التكنولوجي.

ثامناً : **تهديد الخصوصية**

نموذج الهوني بوت – HoneyBot مثلاً، هو نظـام أو برنـامج مســـتخدم في مجال الأمن الســـيبراني، ووظيفته محاكاة الأجهزة والأنظمة والشـــبكات الإلكترونية الحقيقية وذلك من أجل التصـــدي والقضـــاء على الفيروســـات والهجمات الضـــارة، أي أن

[11] Kaspersky, ماهي الجرائم الالكترونية وأنواع الجرائم الالكترونية

مهمته هي الدفاع عن الأنظمة الحقيقية وحماية الإنسان إلكترونيًا ورقميًا. ولكن في الحقيقة، يُستخدم الهوني بوت لأغراض أخرى إذ يتم استعماله في عالم الاستخبارات، فهو يمتاز بأسلوب خداعي لجذب الفرائس تدريجياً إليه، وبهذا يستطيع مراقبتهم وجمع معلوماتهم، وبه تخترق المجتمعات والشعوب والأنظمة، فحرب اليوم لم تعد مقتصرة على الرصاص، بل صارت حرب معلومات وأفكار.

يتم تقديم الهوني بوت كصديق أو مناصر لقضية نبيلة، وهكذا يستطيع إقناع الناس فيعرف ما تحت رؤوسهم وما يحملونه من معلومات حساسة وأفكار وكذا توجهاتهم. فكم من مرة شعرنا بالملل فأخذنا ندردش مع برامج الذكاء الاصطناعي أو أي غريب آخر، مفشين أسرارنا، مظهرين نوايانا له، بدون أن نتأكد منه حتى، وهذه هفوة في العقل الإنساني.

إذ كانت العامة تستطيع الوصول إلى كل هذه التقنيات والأدوات المتطورة، فما بالك بالتي لم يكشف عنها بعد، تلك التي تستخدمها الحكومات والشركات الكبرى؟ إنه لأمر يدعو إلى القلق، الأجهزة التكنولوجية التي بين أيدينا كالهاتف مثلاً، ما الذي يضمن لنا أننا لسنا مراقبين منه؟ والأقمار الاصطناعية في السماء، كيف نتأكد أنها لا تُراقب تحركاتنا ليل نهار من علو؟ التكنولوجيا خلقت

ثقافة الخوف والقلق، حيث بات كل شـيء خاضـعًا للمراقبة والتقييم اللحظي[12] ، إنه لأمر مقلق لإنسـان شـاك أن يعيش مع أشـياء لا يعرف عن ماهيتها أي شيء، فكيف يعيش مرتاحًا؟

مع مواقع التواصـل الاجتماعي والإنترنت، وفي ظل هذه الطفرة التكنولوجية المتطورة، باتت خصـوصـيتنا مهددة، لقد أصـبحت حياة التافهين صـوت صـورة بين أيدينا، شـكل منازلهم، ملابسـهم، طعامهم، أي شـيء قد يخطر على البال، فقد الرجال شهامتهم وغيرتهم وكذلك النساء لدرجة أنهم أصبحوا يصورون لنا أجسادهم عارية، وينشرونها على مواقع التواصل الاجتماعي للعيان بدون خجل، محزن ما وصـلنا إليه من انحطاط، فلم تعد لدينا لا مبادئ ولا أخلاق ولا خصوصية ولا روح إنسانية تميزنا عن باقي الحيوانات، الإنسان ذو الأخلاق الرفيعة والمبادئ السامية، أين هو؟ لقد اختفى بين المخلوقات الأخرى، ضـاع شـخصـه وذاب، فأصـبح كـالرجل كـالخنزير لا أحد منهم لديـه غيرة على محـارمـه، وبهذا فـالتقـدم التكنولوجي لا يلغي التوحش، بـل يغطي عليـه بمظـاهر حضـارية زائفة[13] ، فلا الأخلاق الكانطية المطلقة، ولا أي دين أو شـريعة تسـتطيع أن تعيد الإنسـان إلى رشـده، فإنسـان اليوم يظن أن

[12] Furedi, Frank, Culture of Fear: Risk-taking and the Morality of Low Expectation, Cassell, 1997

[13] عدوان، ممدوح، مصدر سابق، ص 11.

التحضـــر عري، والشـــهرة عري، والثروة عري، الحقيقة أن عقله عرّي، فنحن لم نكن نعرف الحقيقة المخبوءة في الطبيعة النفســـية للإنســـان حتى أتت التكنولوجيا لتكشـــفها لنا. في جانب أخر لم تعد التكنولوجيا أداة لخدمة الإنســـان، بل أصـــبحت وســـيلة لتحويله إلى ســـلعة تُباع وتشـــترى[14]، فالبيانات الشـــخصـــية للإنســـان تُســـتغل لأغراض تجارية، اقتصادية، وسياسية فباتت تُباع وتُشترى بأموال باهظة.

باتت الانظمة الاقتصـــادية الدولية تعتمد على التكنولوجيا بشكل شامل، مما أدى إلى انتشار ثقافة الاستهلاك، نحن نعلم حقيقة هذه الثقافة الاســـتهلاكية، وكيف أنها تقتل الحس وتغييب الضـــمير الإنســـاني، فتجعل البشـــر عبيداً لشـــهواتهم وأهوائهم، فالتكنولوجيا تُستغل لأغراض تجارية-اقتصادية، وتروج للفكر الاستهلاكي عبر الاعلانات والبرامج التي صـممت بعناية لهذا الغرض، فكم من مرة اشـــتريتَ منتوجات لا تحتاجها، بل وقد لا تكون لها علاقة بك، ولكنك قمت بهذا الأمر لأن طريقة الترويج خدرات وعيك وأيقظت شهوتك، وجعلتك تتبع السراب.

[14] Zuboff, Shoshana, The Age of Surveillance Capitalism, PublicAffairs, 2019, p. 8.

الثقافة الاســـتهلاكية، هي ثقافة طلب المزيد، وهي شـــاملة العالم، فمن هذا الذي لا يطلب دوماً وباســـتمرار، الإنســـان حيوان جشع لا يمكن إشباعه، والطبيعة محدودة، فإن استمر الطلب ستنتهي الحياة لا محالة، إذا علينا وضع حلول لهذه المعضلات بشكل سريع.

تاسعاً : **التكنولوجيا والبيئة**

لقد أوصـلت التكنولوجيا الإنسـان إلى حدّ التلاعب بجيناته والتدخل في شكله وصورته، وفي الحقيقة، فإن العلم هو من مهّد لنا هذا الطريق، بينما التكنولوجيا مجرد أداة في يده، أما الإنســـان، فقد تحوّل إلى فأر تجارب، يختبر في نفسه ما يصنعه بعقله.

نحن اليوم نتفـاخر بمـا نراه إنجـازًا؛ التحكم في الطبيعـة، التلاعب بالمناخ، وصـــناعة المطر عبر تلقيح الســـحب، والتلاعب الجينات، لكن ما لا نعترف به هو أننا نُســـرع في التطور دون أن نلتفت إلى العواقب، الطبيعة لم تعد كما كانت، الفصـول مضـطربة، والكائنات الحية تعاني من الأمراض والاختلالات، فإذا نظرنا إلى العلوم الفيزيائية والكيميائية، وخصـــوصًـــا اســـتخداماتها النووية، فســـنرى أثرها الكارثي بوضـــوح على الواقع الإنســـاني، كما في ناكازاكي وهيروشـــيما، بعد أن ألقيت عليهما القنبلتين النوويتين من قبل أمريكا الديمقراطية الداعية للسـلام، ورغم أن الفيزياء والكيمياء

أدوات علمية، إلا أن الكوارث التي ترتبت عليهما لم تكن لتحدث لولا تدخل التكنولوجيا العلمية.

لقد وقع خلل في النظام الطبيعي ان لم نقل الكوني، فلا فصل يأتي في وقته، ولا كائن يعيش على سطح الارض إلا وهو يعاني، بل حتى والوقت ومشاعر الانسان اصبحت مضطربة، لقد تسبب الإنسان في الجفاف، قلة المواشي، انحسار المراعي، تصحر السهول، والاراضي الجدباء، وانقراض أنواع نباتية وحيوانية مهمة، كوارث وأزمات طبيعية متتالية، وكيف نسميها طبيعية والإنسان صانعها، لقد تلاعب الإنسان بالطبيعة واستفزها، فغضبت وثارت عليه، وجعلته يتحمل عواقب وخيمة نتيجة افعاله الانانية اللاعقلانية.

تستهلك الآلات التكنولوجيا كمية هائلة من الطاقة وتُهدرها، مما يسبب انبعاثات حرارية وغازات وكربونات سامة، والطلب الكبير والمستمر للتكنولوجيا على الطاقة، والذي ليس هناك سبيل دائم لتلبيته، فالموارد الطبيعية تُستنزف، والبيئة تتدهور وتتعرض لأضرار بالغة يوماً بعد يوم، والحلول شبه منعدمة، إننا في كارثة بيئية وأزمة وجودية صنعناها بأيدينا.

لنلقي نظرة على ثقب الأوزون، وما فعلته المصانع والملوثات الكيميائية، وإلى القارة المتجمدة كيف أنها تذوب وتختفي مسببة ارتفاع حرارة لم يسبق له مثيل.

وفي التكنولوجية الالكترونية، الهواتف المحمولة أصبحت مصدرًا للخطر المباشر، فكم من حادثة سير وقعت فقط لأن إنساناً ما كان يقود وهو يتحدث أو يشاهد هاتفه، 93 % من حوادث السير سببها استخدام الهاتف اثناء القيادة[15]، فلم تمنعه القوانين التي وضعها من الموت، لكنها كانت ستقيه شر الموت لو أنه احترمها،

الهوس بالتكنولوجيا، بالتقنيات الحديثة، شبيه تمامًا بهوس التافهين بمحتوى الإنترنت التافه، بل يشبهه هوس العسكريين بأسلحة الدمار الشامل، التي لا تقل تدميرًا وخطراً، وكلها تُبنى باسم التكنولوجيا.

الإعلام كذلك لم يسلم، إذ يتم تخدير وتغييب الرأي العام إعلامياً، فإعلام اليوم يصنع الأحداث، يحرّفها، ويغير مجراها، يختار من ينصره ومن يخذله حسب الجهة التي تموله وتتحكم فيه، وأيضاً معظم الشركات الإعلامية غالباً ما تكون في يد نخبة ذات توجه مشابه، لذلك فما نراه على الشاشات وما نسمعه في الأخبار

[15] القبس، «المرور»: 93% من حوادث السير سببها استخدام الهاتف، 03 أكتوبر 2024

ليس دائمًا الحقيقة، بل هو ما يريدون لنا أن نعرفه ونصدقه، فلم يعد الإعلام ناقلًا محايدًا للأخبار، بل أصبح أداة للتضليل والفبركة، وصاحب السلطة والنفوذ ومن يدفع أكثر يبتاع الاعلام إلى جانبه، ويُخدَّر به الرأي العام، ويُغيَّب العقل، كما يشاء دون أن يشعر الناس بذلك.

عاشراً : **دعوة إلى التوازن**

من أجل سلامة عقل وجسم الإنسان، لابد من العمل اليدوي والتجارب الواقعية الحسية، فالإنسان الذي لا يحتك بالواقع لا يتعلم حتى وإن أخذ من العلم النظري فهو يحتاج إلى التجربة العملية حتى تكتمل دائرة معارفه ويكتسب مهارات حقيقية تجعل منه إنساناً مستقلاً يعتمد على نفسه ما أمكن وعلى الاخرين بشكل طفيف بعيداً عن الآلات والتقنيات، هذا سيُعزز الروابط الاجتماعية وينمي الإحساس بالفخر والاعتزاز، وكذلك التقدير الذاتي سواء من طرف الغير أو من طرف النفس. على المرء أن يغادر أريكته ويترك شاشاته ويخرج إلى العالم الخارجي ليتفاعل مع الناس، ويكتسب مهارات تواصلية واجتماعية جديدة. وعليه أيضًا أن يتجه إلى الطبيعة ليكتسب منها القوة الجسدية، ويأخذ منها صفاء الذهن من خلال التأمل والتفكير المطلق والتركيز على تفاصيلها لطرح التساؤل، لأننا حقاً نحتاج إلى ذلك.

إنما نكتسبه من معارف بالتجربة لا ننساه بسهولة، عكس ما نقرأه ونتعلمه بشكل نظري عبر الإنترنت، فالوسيلة هي الرسالة، والتكنولوجيا ليست فقط وسيلة توصيل، بل تُعيد تشكيل وعي الإنسان ذاته [16]. لذلك، يجب أن نقوم بتثقيف أنفسنا والمحافظة على التراث والثقافات التي تتلاشى في ظل الطفرة التكنولوجية والثورة العلمية الحالية بشكل تقليدي، كما يجب علينا أن نخلق نوعًا من التوازن بين الحياة الرقمية والحياة الواقعية، هذا التوازن يعزز الصحة النفسية ويقلل من التأثيرات السلبية التي يسببها الإفراط في استخدام التكنولوجيا التي لم تمنح الإنسان الثبات، بل جعلته كائنًا سائلًا، دائم القلق، هشّ الروابط [17].

خاتمة

إني لم أذكر من إيجابيات التكنولوجيا إلا قليلاً، وهذا لا يعني أني أنكر فضلها على الانسانية، ولكني أردت أن أبين للقارئ وجهها السلبي المظلم، والذي أغفل عنه جل الناس وغضوا عنه أبصارهم، فالتكنولوجيا لا يجب أن نفرح لها، فنحن لا نعرف ماذا يخفي عنا المستقبل حولها، فقد يحدث انقلاب علينا كما في افلام

[16] McLuhan, Marshall, Understanding Media: The Extensions of Man, McGraw-Hill, 1964, p. 23

[17] باومان، زيغمونت، الحداثة السائلة، ترجمة فواز طرابلسي، دار الساقي، بيروت، 2007، ص. 52.

الخيال العلمي، وقد حدث فعلاً، لكن ليس بالطريقة التي تخيلناه بها، رجال من فلاذ آليون، على العكس، فإن أي جهاز استطاع استنزاف طاقتنا وسرقة وقتنا ووظائفنا ومشاعرنا هو ألة أحدثت انقلاباً غير مباشر علينا، فأخرجتنا من فطرتنا وأدخلتنا كهف التشيؤ.

وقد فشل العقل الإنساني في المحافظة على جوهره، فكما يتم استبدال الأطراف البشرية بأخرى فولاذية إن تعرضت لأذى، استبدل انسان اليوم عقله بعقل آلي تقني، وخضع له، فلم يعد له أي سلطة على نفسه.

العلم مُحدث التكنولوجيا، وهو مسبب الأزمة التكنولوجية، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يحل هذه الأزمة، فنحن في موقع لا نستطيع منه العودة إلى الوراء، لكننا نستطيع التقدم إلى الامام بفعل العلم نفسه، لذلك وجب استخدام العلم وتطوير التكنولوجيا لأفضل حال لخدمة البشر، لا لخدمة البشر لها.

التكنولوجيا أو الآلة أو التقنية [...] كل حسب ما يحب تسميتها، هي عدو الانسان الأول، وليست صديقاً مساعداً كما يُظن، لذا وجب الحذر منها، وعدم تركها تتجذر في العمق الانساني، بل علينا وضع حد فاصل بيننا وبين هذه الكارثة حتى لا تزيد من حدة

تأثيرها علينا كبشـر وألا تعمق الهوة بيننا وبين الموجودات الأخرى الصديقة لنا.

وهكذا أعيد التأكيد على ســـلبية الانترنت، فهو ســـلاح ذو حدين، لكنه في أغلب الأحيان يستخدم بشكل خاطئ، فلا يتم التمييز بين المحتوى الهادف والمحتوى المضـــلل فينجرف الإنســـان وراء المحتوى التافه ويدمن عليه بدون وعي، وهذا بدون شـك يؤدي الى مزيد من الانحطـاط الفكري والاجتمـاعي، لذا فنحن في حـاجـة إلى توازن، لا رفض التكنولوجيا، بل استخدامها بوعي، وكذا نحتاج إلى إحياء المبادئ الأخلاقية والتمسك بالقيم الانسانية، ودعم العلم والفكر بدلاً من تمجيد التفاهة ونشر البذاءة.

مشكلة الهوية في العصر الرقمي

هبة بولنوار: ***كاتبة مغربية من مواليد 2006 بمدينة خنيفرة كاتبةٌ شابةٌ تحاول أن تجد صوتها في عالم الأدب والفكر.***

أولاً : **مفهوم الهوية في العصر الرقمي**

الهوية هي الكيان الذي يعرّف الإنسان، وتشمل القيم والمعتقدات والتجارب التي تشكّل كل فرد فينا. في هذا العصر الرقمي، أصبح من الصعب تحديد هوية واحدة تمثل كل فرد على حدة، حيث تداخلت الهويات الشخصية مع الهوية الافتراضية التي يُقدم بها كل فرد عبر الإنترنت في كل مواقع التواصل الاجتماعي. فالهوية لم تعد مجرد انعكاس للواقع، بل أصبحت مزيجًا من التفاعلات، والبيانات، والصور التي يشاركها كل شخص عبر فضائه الرقمي. هذا التطور يطرح تساؤلات حول مدى واقعية هذه الهوية الرقمية ومدى تأثيرها على الهوية الحقيقية للفرد، وإن نظرنا حتى في الهويات الافتراضية للفرد وحدها، سنجد أنها تختلف من موقع لآخر، فأنا شخصيًا ستجدني في الفيس بوك مختلفة تمامًا عن ماهيتي في إنستغرام وغيره.

على فيسبوك، قد أكون شخصًا جادًا أشارك فيه أفكاري حول قضايا اجتماعية أو سياسية، وربما أستخدمه للبقاء على تواصل مع العائلة والأصدقاء القدامى، فأظهر بصورة تقليدية إلى حد ما. أما على إنستغرام، فقد أحرص على نشر صور مليئة بالحياة والطاقة، أشارك لحظاتي الممتعة فقط، وأحاول أن أعكس جانبًا أكثر انطلاقًا من شخصيتي، حتى لو لم يكن ذلك يعكس كل أوجه حياتي الحقيقية. أما على تويتر، فقد أكون شخصًا آخر تمامًا، ربما أكثر حدة في آرائي، أو أكثر تحررًا في التعبير عن نفسي. وهذا لا يعني بالضرورة أنني أزيّف حقيقتي، لكنه يكشف كيف أن كل منصة رقمية تفرض بشكل غير مباشر نمطًا معينًا من التعبير والسلوك، مما يجعل الهوية الرقمية متشعبة ومتغيرة بحسب السياق.

في السابق، كانت الهوية تتشكل من خلال التجارب الحياتية والعلاقات المباشرة بين شخص وآخر، فالإنسان يجد مشاكل ويحاول حلها، ويسمع آراء من أشخاص حقيقيين، بدءًا من العائلة والأقارب، مما يساعده في تشكيل مبادئه وأفكاره الشخصية. الهوية في تلك الفترة كانت أكثر استقرارًا، لأنها كانت تتطور بناءً على مواقف واقعية تحدث في العالم الحقيقي، حيث يتفاعل الشخص مع الآخرين وجهًا لوجه، ويتلقى ردود فعل مباشرة من محيطه. على سبيل المثال، عندما كان شخص ما يمر

بأزمة شخصية، كان يلجأ إلى أصدقائه أو أسرته ليأخذ نصيحة أو دعماً عاطفيًا، وكان لهذا أثر عميق في تشـــكيل رؤيته للحياة. أما اليوم، فقد أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي، والمدونات، والألعاب الإلكترونية منصـــات جديدة يختبر من خلالها الفرد هويته، ويتفاعل مع العالم بطرق لم تكن متاحة من قبل.

هذه الحرية المطلقة في الوصـــول إلى المعلومات والتفاعل مع محتوى غير محدود جعلت الإنسان عرضة لموجات متلاحقة من الآراء والأفكار المتناقضة. فبدل أن يكون للفرد مسار طبيعي في اكتشاف ذاته من خلال تجاربه الشخصية، أصبح يتأثر بالمحتوى الذي يشاهده على الإنترنت، حتى وإن لم يكن يعكس واقعه أو احتياجاته الحقيقية. تكثر عليه الأفكار والآراء والقيل والقال، إلى أن يجد نفســـه تائهًا لا يعرف من هو، وما يريد. ففي الصـــباح قد يكون متأثرًا بفيديو يتحدث عن أهمية النجاح المادي وضـــرورة العمل بجد لتحقيق الثروة، وفي المســـاء قد يصـــادف محتوى آخر يـدعو إلى التخفف من ضـــغوط الحيـاة والتركيز على الاســـتمتاع بكل لحظة، فيبدأ في التشـــكيك في قناعاته التي تبناها منذ ساعات فقط.

الهوية في العصـــر الرقمي لم تعد ثابتة، بل أصـــبحت ديناميكية، تتغير بتغير المنصـــات المســـتخدمة وطبيعة التفاعل مع الآخرين، فيمكن

للشـــخص أن تتغير أفكاره من مقطع لمقطع. لنأخذ على ســـبيل المثال شـخصًـا يقلب في المقاطع القصـيرة على منصـة إنسـتغرام أو ما نسـميه (ريلز)، سـيرى مقطعًا يشـجع على ارتداء ملابس قصـيرة وسـيتفق معه بـالرغم من أن هويتـه الحقيقيـة لا تحبذ الأمر، ليس لأنـه اقتنع بـالفكرة، ولكن لأن المقطع صُـــوِّر بطريقة جذابة، أو لأن التعليقات مليئة بردود فعل إيجابية تدعمه، فيشـعر لا شـعوريًا أن هذه الفكرة مقبولة اجتماعيًا. وبعد لحظات فقط، قد يرى مقطعًا آخر ينتقد هذا الســلوك بشــدة ويؤكد أهمية الحفاظ على الحشمة، فيبدأ بالميل لهذا الرأي والتفكير فيما إذا كان المقطع السـابق مضـللًا. وهكذا، يجد نفسـه في دوامة لا تنتهي من التأثر اللحظي بالمحتوى الذي يشـــاهده، حتى دون أن يكون لديه وقت كافٍ لتحليل الأفكار التي يتعرض لها أو التحقق من صحتها.

هذه التحولات تؤثر بشكل مباشر على إدراك الفرد لذاته وتكوينه الفكري والنفســـي، لأنه لم يعد يطور قناعاته بناءً على تجارب واقعية أو تفكير معمق، بل بناءً على المحتوى الأكثر انتشارًا أو الأكثر إقناعًا من الناحية البصـرية والصـوتية. فالإنسـان، في النهاية، مخلوق اجتماعي يسـعى إلى القبول والانتماء، وإذا كان رأي الأغلبية على الإنترنت يتجه نحو فكرة معينة، فمن الصـعب عليه مقاومة هذا التأثير. وهنا تكمن خطورة الأمر:

هل الهوية التي نشـكلها في الفضــاء الرقمي تعبر عنا حقًا؟ أم أننا مجرد انعكاس للمحتوى الذي نستهلكه يوميًا؟

ثانياً : **تعدد الهويات والذات الرقمية**

في العالم الرقمي، يمكن للفرد أن يمتلك أكثر من هوية، فهناك الهوية الواقعية التي يعيشـــها في حياته اليومية، وهويات رقمية متعددة يقدمها عبر مختلف منصـــات التواصـــل الاجتماعي. هذا التعدد قد يكون وســـيلة للتحرر والتعبير عن الذات، لكنه يؤدي في غالب الأحيان إلى التشـــتت وصـــعوبة تحديد الهوية الحقيقية. تقول ريمي ريفيل في كتابها "الثورة الرقمية.. ثورة ثقافية؟" إن "النزعة الفردية المعاصـــرة، التي تركز على تحقيق الذات، أدت إلى دفع الأفراد لإنشـــاء هويات متعددة على الإنترنت، مما سـمح لهم بالتعبير عن مختلف جوانب شـخصـياتهم بحرية. هذا التعبير الذاتي عن المشـاعر والأحاسـيس أدى إلى تلاشـي الحدود التقليدية بين الحياة الشخصية والحياة العامة."

على غرار ذلك، قد يكون الشـــخص جادًا في بيئة عمله، يقوم بمهامه بصـرامة، ويتعامل مع زملائه بوقار، لكنه يظهر بصـورة مرحة على حسـاباته الشـخصـية، حيث يضـحك ويمزح في التعليقات والصـور التي يقوم بتحميلها. هذه التغيرات في السلوك والهويات قد تكون طبيعية،

لكنها قد تؤدي إلى صراع داخلي عندما تصبح الفجوة بين الهوية الرقمية والهوية الواقعية كبيرة جدًا. فقد يشعر الفرد بأنه يعيش حياة مزدوجة أو غير متسقة، مما قد يؤثر على إحساسه بذاته وثقته بنفسه، ويدفعه ذلك للتساؤل عن ماهيته الحقيقية، وعن كينونته (هل هو شخص يحب الوحدة أم يحب التواجد بين الناس؟ هل هو شخص صارم وجاد أم متساهل ومرح؟).

علاوة على ذلك، هناك مشكلة تتعلق بالتوقعات المجتمعية، حيث يتعرض الأفراد لضغوط لنشر صورة مثالية عن أنفسهم عبر الإنترنت، فتدخل في هذا الحيز المعايير التي يضعها كل مجتمع، سواء فيما يتعلق بالذكاء، الجمال، وغيرها. هذه الضغوط قد تدفع البعض إلى تعديل شخصياتهم بشكل كبير وملحوظ في العالم الرقمي، مما يؤدي إلى شعورهم بعدم الارتباط بهويتهم الحقيقية. وبالتالي، فإن تعدد الهويات قد يكون سلاحًا ذا حدين، فهو يمنح الفرد حرية التعبير، لكنه يخلق تحديات نفسية واجتماعية من الصعب تخطيها، تتعلق بإدراك الذات.

ثالثاً: **الانعزال مقابل الانتماء**

في عصرنا الحالي، مع الانتشار الهائل للإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، أصبح الإنسان قادرًا على التواصل مع الآخرين

من مختلف أنحاء العالم بسهولة لم يسبق لها مثيل. فما إن تفتح هاتفك حتى تجد نفسك غارقًا في بحر من الرسائل والإشعارات، وكأن العالم كله بين يديك. لكن المفارقة الصادمة هنا هي أنه بالرغم من هذا الكم الهائل من الاتصالات الرقمية، يشعر الكثير من الناس بالوحدة والانعزال أكثر من أي وقت مضى. التفاعل عبر المنصات الرقمية غالبًا ما يكون سطحيًا، مقتصرًا على مجرد إعجابات أو تعليقات عابرة. تلك الإيموشنز والقلوب الصغيرة قد تعطيك دفعة سريعة من السعادة عند رؤيتها، لكنها تتبخر بعد دقائق، تاركةً وراءها فراغًا عاطفيًا لا يملؤه شيء. في ،الماضي، كانت المحادثات تتم وجهًا لوجه، مليئة بالتفاصيل الدقيقة بنبرات الصوت، بتعابير الوجه، بل وحتى بذلك الصمت الذي يحمل ،معاني كثيرة. أما اليوم، فقد تحول الحوار إلى مجرد رسائل نصية جافة تُختزل أحيانًا في رمز تعبيري أو "ستيكر"، وكأننا نستبدل المشاعر الإنسانية العميقة برموز لا تحمل إلا جزءًا ضئيلًا مما نريد قوله. الغريب في الأمر أن الشخص قد يكون لديه آلاف المتابعين أو المئات من الأصدقاء" على فيسبوك أو إنستغرام، لكنه في اللحظات الصعبة لا يجد" أحدًا يحاوره بصدق. يشعر وكأنه يعيش في وهم اجتماعي، حيث الكل حاضر رقميًا، لكن غائب عاطفيًا. فمن السهل أن تضغط زر "إضافة صديق"، لكن من الصعب جدًا أن تجد شخصًا يستمع إليك بقلب مفتوح عندما تحتاج إلى كلمة صادقة بسبب هذا النمط من التواصل السريع

والسطحي، يجد بعض الناس صعوبة كبيرة في بناء علاقات حقيقية ،خارج الشاشات. فالتواصل الحقيقي يتطلب جهدًا، يتطلب مواجهة يتطلب أن تضع نفسك في موقف قد يكون محرجًا أو مؤلمًا أحيانًا. لكن في العالم الرقمي، يمكنك بسهولة إنهاء أي محادثة غير مريحة بمجرد إرسال "إيموجي" أو تجاهل الرسالة. وهكذا، يختار الكثيرون الانسحاب إلى عوالمهم الافتراضية، حيث لا يوجد التزام عاطفي حقيقي، ولا حاجة للمواجهة، ولا مخاطرة بالمشاعر. النتيجة؟ جيل يشعر بالوحدة وسط زحام لا ينتهي من الإشعارات والرسائل. جيل يعاني من عزلة اجتماعية .غريبة، حيث يكون محاطًا بالناس افتراضيًا، لكنه وحيدٌ جدًا في الواقع فبدلًا من أن تقربنا التكنولوجيا من بعضنا، أصبحت حاجزًا يمنعنا من التواصل الإنساني الحقيقي. نعم، يمكنك أن تبوح بكل أسرارك لشاشة هاتفك، لكن هل ستشعر بالارتياح نفسه عندما تشاركها مع إنسان حقيقي يجلس بجانبك، يسمعك، يضحك معك، أو حتى يبكي معك؟

رابعاً : **الأزمة النفسية، فقدان الهوية وتأثير التوقعات**

إن الهوية الفردية للشخص تتعرض للجلد مرارًا وتكرارًا بسبب المقارنات المستمرة مع الآخرين عبر وسائل التواصل الاجتماعي. إن هذه معضلة، فرؤية تصورات مثالية للحياة تجعل الإنسان يفتح عينيه على فجوة كبيرة تحول بين ما يعيشه هو، وما هو منتشر على الإنترنت.

هو يعيش في بيت مكون من طبقين ويرى شخصًا آخر ينعم بڤيلا فسيحة مع حديقة كبيرة يتوسطها مسبح، أو يرى أزواجًا يصورون حياتهم اليومية والتي تظهر بشكل وردي وبمثالية زائفة. وعندما يقرر تجربة الأمر يصطدم بواقع مغاير تمامًا، كل هذا يجعل الشخص يشعر بأنه أقل نجاحًا وجاذبية، ويصبح في سباق مع مختلف الأشخاص على الإنترنت، مما يسبب انخفاض الثقة بالنفس، القلق وأسوأ من ذلك الاكتئاب. إضافة إلى ذلك، فإن التعرض الدائم لأخبار سلبية ومعلومات متعصبة لأشخاص يريدون فقط الشهرة يرمي بالفرد إلى الإرهاق النفسي، حيث يجد البعض أنفسهم غارقين في قضايا عالمية أو قضايا شخصية لناس آخرين لا يمكنهم التأثير فيها بأي طريقة، مما يزيد من مشاعر العجز والإحباط لديهم.

مع كثرة استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والإفراط فيها، أصبح هناك ضغط هائل لتحقيق النجاح السريع. يوميًا، ترى المئات من الأشخاص ينهضون في الصباح الباكر، يأخذون حمامًا ساخنًا ويقومون بالتمرين أو الدراسة، يأخذون إفطارًا صحيًا ويذهبون لعملهم... ويبقى السؤال: هل يمكن لشخص ما أن يقوم بهذا يوميًا؟ أو ترى مراهقًا قد حقق كل الأشياء التي لم يحققها شخص في الثلاثينات من عمره، مراهق يملك سيارة ومشروعًا تجاريًا، يسافر لعديد من بلدان العالم. يُتوقع من

الشباب أن يكونوا ناجحين، جذابين ومبدعين، أن يحققوا إنجازات كبرى في وقت مبكر. هذا يولد ضـــغوطًا نفســـية تؤدي إلى القلق الدائم حول مستقبل مجهول وخوف مستمر من الفشل، خاصة مع المقارنة المستمرة بالآخرين. في بعض الأحيان، يشـــعر الأفراد بأنهم مضـــطرون لإظهار حياة "مثالية"، حتى لو لم تكن تعكس واقعهم الحقيقي. هذا الضـــغط قد يدفع البعض إلى الاحتراق النفسي (Burnout) أو الشعور بعدم الكفاءة حتى لو كانوا يحققون نجاحات فعلية.

كما تطرقنا في السـابق، أصـبحت الهوية الرقمية جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية. فهي تمثل الطريقة التي نقدم بها أنفســـنا للعالم عبر الإنترنت من خلال وسـائل التواصـل الاجتماعي، المنتديات، والمنصـات المختلفة. هذه الهوية قد تكون انعكاسًـا حقيقيًا لشـخصـيتنا، لكن غالبًا ما تكون صـورة معدلة لا تمثلنا بأي صـلة، نحاول من خلالها تحقيق أهداف معينـة مثل كســـب القبول الاجتمـاعي من طرف مجموعـات معينـة أو التأثير في الآخرين للإحســـاس بالأهمية. مع تطور التكنولوجيا وزيادة التفاعل الرقمي، أصـبحت الهوية الرقمية أكثر تعقيدًا، حيث لم تعد مجرد معلومات أو صـور نشـاركها، بل باتت تسـاهم في تشـكيل صـورتنا الذاتية وحتى كيفية تعامل الآخرين معنا، وكذلك كيفية رؤيتنا نحن لذواتنا.

خامساً : **بين التزييف والبحث عن القبول**

في سعي الإنسان للظهور بصورة مثالية على الإنترنت، يقع الكثيرون في فخ التزييف، وذلك يتجلى في التعديل المبالغ فيه للصور قبل وضعها على حساباتهم الشخصية، أو من خلال الحديث عن نجاحات لم تحققها. وتظهر كذلك من خلال تبنيك ودفاعك عن آراء ترفضها، لكنك تقوم بذلك فقط لتعجب وتبهر أطراف معينة. هذا التزييف بالطبع يكون مدفوعًا برغبة في كسب الإعجاب، الهروب من الواقع، أو مجاراة المعايير المجتمعية التي تفرضها وسائل التواصل. من جهة أخرى، البحث عن القبول هو حاجة طبيعية، لكن عندما يصبح هاجسًا، ويصبح الشغل الشاغل هو الشعور بالقبول، فإنه يدفع الأفراد إلى تقديم صورة غير حقيقية عن أنفسهم، مما يؤدي إلى الشعور بعدم الرضا الداخلي، خاصة عندما لا تتطابق الهوية الرقمية مع الواقع، فتكون شخصيتهم في المواقع بالنسبة لهم أكثر جاذبية ولا يجدون الطريقة ليصبح واقعهم كذلك. يؤدي ذلك إلى ضغوط نفسية كبيرة، حيث يشعر الشخص بأنه محاصر في صورة مثالية يصعب الحفاظ عليها.

سادساً : **كيف يمكن الحفاظ على هوية رقمية متوازنة؟**

لتحقيق توازن صحي في العالم الرقمي، يجب أن نكون صادقين مع أنفسنا ونحرص على أن تعكس هويتنا الرقمية حقيقتنا دون مبالغة أو تزييف. أن نقوم بتحميل صور طبيعية لنا دون الاستعانة بتعديلات كثيرة، وأن نشارك في الحوارات بتجاربنا الحقيقية وأفكارنا الخاصة التي نؤمن بها ونتبناها، حتى وإن تعرضنا للانتقاد من طرف العديد من الأشخاص. تقبل العيوب وعدم السعي وراء الكمال المفرط يساعد في بناء صورة واقعية وصادقة، فالناس يتفاعلون بشكل إيجابي مع التلقائية أكثر من المثالية المزيفة، حتى وإننا نرى العكس، لكن المهم أن يكون الشخص على طبيعته ولا يهم رأي الآخرين. من المهم أيضًا وضع حدود بين ما هو عام وما هو خاص، لحماية الخصوصية وعدم مشاركة تفاصيل قد تؤثر على حياتنا الشخصية والمهنية، لأنه من الممكن أن ينتقد شخص واحد عملك أو شيئًا خاصًا بك، فتدخل في دوامة من التفكير (هل ما أقوم به جيد؟ هل من الممكن أن يكون ذلك الشخص محقًا؟). بالإضافة إلى ذلك، يجب ألا نربط قيمتنا الذاتية بعدد الإعجابات والمتابعين، لأن التفاعل الرقمي متغير وليس ثابتًا، وكذلك فإنه لا يعكس بالضرورة مدى نجاحنا أو أهميتنا الحقيقية. تعزيز العلاقات الواقعية وتنويع مصادر التفاعل يساهمان في الحفاظ على توازن صحي بين

الحياة الرقمية والحياة الواقعية، مما يقلل من الضغوط الناتجة عن المقارنة والسعي وراء القبول الافتراضي. وأخيرًا، فإن الوعي الرقمي ضروري لمساعدتنا على التعامل مع المحتوى بذكاء، والتفكير قبل النشر، والتأكد من أن ما نشاركه يعبر عن قيمنا وأفكارنا الحقيقية. بهذه الطريقة، يمكننا الاستفادة من العالم الرقمي دون أن نفقد ذواتنا في زيفه. ومن يحس أنه لا يستطيع أن يوازن بين هذه الأشياء، فليحاول الابتعاد عن هذه المواقع مدة من الزمن ليستعيد وعيه وثقته بنفسه، ويتعلم جيدًا كيف يشعر بالامتنان لكل ما يملكه.

وللتأكيد لم يعد التزييف مجرد سلوك فردي، بل أصبح ظاهرة واسعة تشمل جوانب كثيرة، من العلامات التجارية التي تروج لمنتجاتها بطرق غير واقعية، إلى المؤثرين الذين يعرضون حياتهم بأسلوب مثالي يجعلنا نصدق أنهم يعيشون بلا مشاكل أو صعوبات. النتيجة؟ بيئة غير صحية، حيث يصبح المظهر أهم من الجوهر، ويُقيَّم الناس بناءً على ما ينشرونه، لا على حقيقتهم الفعلية.

مع مرور الوقت، يجد البعض أنفسهم أسرى لهذه الصورة الرقمية المثالية. كلما زاد اهتمام الشخص بالحصول على القبول عبر الإنترنت، زاد شعوره بالقلق إذا لم يحصل على التفاعل المتوقع. وهذا ما يدفع البعض إلى شراء المتابعين، أو فبركة قصص نجاح، أو حتى التظاهر

بالسعادة في وقت هم فيه أبعد ما يكونون عنها. المشكلة أن الاستمرار في هذا الأمر يؤدي إلى نوع من الانفصال عن الذات، حيث يصبح من الصعب التمييز بين الشخص الحقيقي وذلك الذي تم بناؤه على الإنترنت.

من الناحية النفسية، هذا النمط مرهق جدًا. الشخص الذي يعتمد على التزييف في بناء هويته الرقمية يجد نفسه مجبرًا على الاستمرار في هذه الصورة، حتى لو كان ذلك على حساب راحته النفسية. الخوف من انكشاف الحقيقة، القلق المستمر بشأن التفاعل، وانخفاض تقدير الذات كلها نتائج محتملة لهذه الدوامة. فالشخص الذي لا يرى نفسه كافيًا كما هو، سيحاول جاهدًا إرضاء الآخرين، حتى لو كان ذلك على حساب الصدق مع نفسه.

و على المستوى الاجتماعي، أصبح الكثيرون يقيسون قيمتهم بعدد الإعجابات والتعليقات، بدلًا من التركيز على بناء علاقات حقيقية قائمة على التفاهم والصدق. هذا يخلق بيئة تنافسية غير صحية، حيث يسعى الجميع للظهور بصورة أفضل من الآخرين، مما يزيد من الضغوط النفسية، خاصة لدى الشباب الذين ما زالوا في طور بناء هويتهم.، هل هناك حل؟ بالطبع، والأمر يبدأ بالوعي. علينا أن ندرك أن ما نراه على وسائل التواصل ليس دائمًا الحقيقة، وأن المثالية التي نراها غالبًا ما تكون مجرد صورة مُنتقاة بعناية. من المهم أن نتقبل أنفسنا كما نحن،

دون الحاجة لمعايير غير واقعية يُفرض علينا تصـــديقها. أيضًـــا، من الضروري تعزيز النقاش حول الصحة النفسية وتأثير وسائل التواصل الاجتماعي، حتى نتمكن من التعامل مع هذه المنصـــات بطريقة أكثر وعيًا واتزانًا.

في النهاية ، من الطبيعي أننرغب في القبول والاهتمام، فهذه حاجة إنســـانية. لكن الفرق بين البحث الصـــحي عن القبول والتزييف هو الصـــدق—مع أنفســـنا قبل أي شـــيء آخر. حين نتقبل ذواتنا كما نحن، نسـعى للتطور الحقيقي بدلًا من بناء صـورة زائفة، نصـل إلى شـعور أعمق بالرضا والسلام الداخلي.

عقل تحت حصار ناعم

أحلام سارة: ***كاتبة جزائرية، من مواليد 2003 بالجزائر العاصمة.***

في عالم بات تحصيل المعلومة فيه أسهل من أي وقت مضى، تغيرت علاقتنا بالبحث. إذ لم نعد نطارد الأجوبة، بل صارت هي من تلاحقنا، تُقدم إلينا جاهزة دون عناء، وعلى عكس المتوقع فإن هذه السهولة لم تفتح بابًا على وعي أوسع، بل جعلتنا أكثر اعتمادًا على ما يعرض علينا، أقل فضولًا في استكشاف ما هو خارج الموجود، أصبحنا نستقبل الآراء بدل أن نصنعها. بل إننا في كثير من الأحيان نعيد تكرارها دون أن نعي جذورها أو نملك القدرة على مساءلتها، وهذه السهولة سلبتنا شيئًا مهمًا جدًا نجا بفضله أسلافنا عبر الأزمنة، سلبتنا غريزة الارتياب، إذ نفتح هواتفنا، فنجد الأخبار منتقاة حسب ما يفترض أنه يناسبنا، نبحث عن كتاب، فتقترح المتاجر الإلكترونية ما يجب أن نقرأه. حتى الموسيقى لم تعد اختيارًا، بل يتم تشكيل ذوقنا عبر قوائم معدّة مسبقًا. في عالم يبدو أنه يمنحنا حرية لا محدودة، نحن في الحقيقة محبوسون في سجن غير مرئي: سجن الراحة الفكرية، إطار مرسوم مسبقًا يوهمنا بأننا نختار. فالاعتماد

على المعلومات الجاهزة لا يمنح الإنسان معرفة حقيقية، بل يضعف قدرته على التفكير المستقل، حيث يتوقف عن تحليل ما يتلقاه، فيتلاشى حسّه النقدي تدريجيًا، ويصبح أكثر تأثرًا بالأفكار الرائجة. وهكذا يتحول تدفق المعلومات المستمر من وسيلة للمعرفة إلى وسيلة لإخماد التفكير، حيث يغدو الإنسان مجرد مستقبل سلبي لما يُعرض عليه[1].

إنه يمنح الإنسان وهم المعرفة، بينما المعرفة الحقيقية لا تُبنى على الاستهلاك الأعمى، بل على اختيار مدرك لما يستحق أن يُصدَّق وما يجب أن يُرفض. فالخطر الحقيقي لا يكمن في نقص المعلومة، بل في كثافتها التي تُخفي تحتها حقائق كبرى، وتجعل الوصول إليها مهمة أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش. وعبر التاريخ، سعت عديد من الأنظمة الفكرية إلى تشكيل وعي الإنسان، سواء باستخدام السلطة الدينية أو الأنظمة السياسية والاقتصادية، لكن في القرن الثامن عشر، ظهر تيار فكري رفض الامتثال التلقائي وطرح تصورًا جديدًا لدور العقل.

التنوير لم يكن مجرد حركة فكرية، بل دعوة شاملة لاستخدام العقل بحرية، بعيدًا عن أي وصاية تحدد للفرد ما ينبغي أن يؤمن به أو كيف يجب أن يفكر. كان تحوّلًا فكريًا عميقًا ساهم فيه فلاسفة مثل ديكارت، الذي أسس للشك المنهجي كأساس للمعرفة، وكانط، الذي نظّر للاستقلال العقلي، وفولتير، الذي واجه التعصب والانغلاق الفكري،

وروســـو، الـذي أعـاد تعريف العقد الاجتمـاعي وحقوق الأفراد. هـذه التحولات الفكرية لم تقتصـــر على تغيير المفاهيم، بل مهدت الطريق للإصـلاحات السـياسـية والاجتماعية الكبرى، مثل الثورات الديمقراطية التي غيرت الأنظمـة التقليديـة في أوروبـا. لقد أدرك مفكرو التنوير أن أخطر ما يمكن أن يواجه الإنســان ليس القيد المادي، بل الجمود الفكري الذي يعطل قدرته على السـؤال وإعادة التفكير في المسـلمات. وقد وعى هؤلاء المفكرون مبكرًا أن تحرير الإنســـان لا يتم إلا بتحرير عقله من التبعية الفكرية لأي سلطة تدّعي امتلاك الحقيقة المطلقة.[18]

إيمـانويل كـانط، أحد أبرز مفكري التنوير، لم يرَ المشـــكلة في محدودية العقل البشـري، بل في تراجع الإنســان عن اسـتخدامه لقدرته على التفكير الحر. في مقالـه "مـا هو التنوير؟"، وصـــف التنوير بـأنـه خروج الإنســـان من حالة القصـــور التي يبقى فيها بمحض إرادته، إما بسبب الكسل أو الاعتياد على تلقي الأفكار جاهزة. وهو إذن القدرة على استخدام الفهم الخاص من دون توجيه الآخر. وهكذا يكون شعار التنوير: تحلّ بالشـــجاعة لاســـتخدام عقلك بنفســـك[2]. وقد نبّه كانط إلى خطورة الركون إلى مـا يُقـال دون تمحيص، محـذرًا من أن الاعتمـاد الدائم على

[18] إيلي باريزر، فقاعة الفلترة: كيف يتحكم الإنترنت في ما نراه ونفكر فيه دار Penguin Press، 2011

عقول الآخرين يُفقد الإنسان استقلاله الفكري ويقوده إلى نوع جديد من التبعية غير المرئية. لكن السؤال الذي يُطرح اليوم بحدة: هل ما زلنا نملك هذه الشجاعة، أم أننا عدنا طواعية إلى تلك الحالة من القصور تحت مسميات جديدة؟

وإذا كان التنوير عند كانط يعني التحرر من التبعية الفكرية عبر استخدام العقل بحرية، فإن هذا الهدف لا يزال بعيد المنال اليوم، بل يواجه تحديات أكثر تعقيدًا. ففي حين كانت العوائق في عصره ممثلة في الاستبداد الديني والسياسي، فإن عوائق عصرنا أكثر خفاءً، حيث لم تعد الوصاية الفكرية تُفرض بالقوة، بل يعاد إنتاجها بطرق غير مباشرة عبر التضليل الإعلامي، المعلومات الموجهة، والأيديولوجيات المتطرفة. إن أخطر ما نواجهه اليوم أن أدوات تشكيل وعينا لم تعد واضحة المعالم، بل صارت تتخفى خلف واجهات رقمية وخوارزميات تصنع لنا واقعًا نعتقد أنه خيارنا الحر. التحدي اليوم لم يعد مرتبطًا بقمع حرية الفكر كما في الماضي، بل يتمثل في التأثير غير المباشر على مسارات التفكير، حيث قد يُخيّل للفرد أنه يمارس حريته بينما تحيط به معلومات موجهة تُشكل وعيه تدريجيًا. والمفارقة أن هذا التوجيه يتم بلغة الحرية والاختيار، بينما هو في جوهره إعادة تشكيل تدريجية لعقولنا وفق مصالح قوى لا نراها.

اذن لم يعد التحدي في الوصول إلى المعرفة، بل في القدرة على فرزها، ومقاومة التوجيه الخفي الذي يحوّل حرية الفكر إلى مجرد وهم داخل حدود غير مرئية. لذلك، لم يعد يكفي رفض الوصـــاية التقليدية أو امتلاك القدرة على التفكير المستقل، بل أصبح من الضروري كشف أشكال التحكم المعرفي الجديدة وإعادة النظر باستمرار في الأسس التي نبني عليها مواقفنا. وفي نهاية المطاف، ربما لم يعد الســـؤال: ماذا نعرف؟ بل: من الذي رســـم لنا خارطة ما نعرفه؟ وأي حقيقة تلك التي نجت من قبضة أدوات تشكيل وعينا؟ إن معركة الإنسان اليوم ليست مع من يمنعه من التفكير، بل مع من يقنعه بأنه يفكر بحرية بينما يوجّهه في كل خطوة دون أن يدري.

إذا كان الســـؤال لم يعد يكمن في مدى معرفتنا، بل فيمن يتحكم فيما نعرفه، فإن الفضـــاء الرقمي اليوم يقدّم لنا مثالًا حيًا على ذلك. فمع تطور وســائل الإعلام الرقمية والشـبكات الاجتماعية، أصـبحت حرية الفكر تحت تهديد جديد: الاســـتقطاب والتوجيه المنهجي الذي يترســـخ داخل عقولنا. هذا التوجيه لا يأتي فقط من الأنظمة أو المؤســـســـات التقليدية، بل من خوارزميات وتكنولوجيا تتحكم في تدفق المعلومات، موجهة إياها نحو مناطق معينة، معزولة عن آراء أو وجهات نظر أخرى. ولذلك، بات السؤال الآن: كيف يؤثر هذا التحكم على الشباب في

الفضـاء الرقمي؟ وكيف يمكن أن تنشـأ انقسـامات فكرية وسـلوكية نتيجة لذلك؟[19]

آثار الفضـاء الرقمي على الشباب عديدة و يمكن ان نلخصـها في عدة نقاط:

أولا، نلاحظ في أيامنا هذه أن الانقسـامات بين الفئات السـياسـية والاجتماعية في تزايد، ويُعزى ذلك إلى طبيعة الشبكات الاجتماعية التي تسـحب الفرد إلى بيئـات معلومـاتيـة مغلقـة، تعرض فقط المحتويـات ووجهات النظر الداعمة والمضـخِّمة لوجهة نظره هو. تدعم هذه الفكرة دراسات مثل التي تم إجراؤها بواسطة جامعة "هارفارد"، حيث أظهرت كيف أن الأشـخاص يجنحون إلى التواصـل مع الآخرين الذين يتشـاركون معهم نفس المعتقدات، وتُسـمى هذه الظاهرة "فقاعة التصـفية" (filter bubbles) أو "غرف الصـدى"، حيث يسـاهم عدم تعرض الأفراد للأفكار المعارضـة في تعميق الانقسـامات وعدم تقبل الآخر المختلف، ومنـه التحجر الفكري. يـأتي دور التنوير هنـا لكسـر هـذه الفقـاعـة، والمسـاهمة في تكوين أفكار مبنية على معرفة شـاملة غير منحازة، بعيدًا

[19] ايمانويل كانط، ما هو التنوير؟ دار Cambridge University Press، 1784.

عن الضـغوط الأيديولوجية التي تصـنع وعينا بدلًا من أن نصـنعه نحن. وهنا تتأكد الحاجة إلى اسـتعادة الإنسـان لملَكة التفكير الحر، القادر على خرق الجدران المعرفية الوهمية التي تُفرض عليه.[3]

ثانيا، تؤثر الأخبار الكاذبة، التي تنتشـر بسـرعة عبر الإنترنت، على ثقة الأفراد في المؤسسات. أظهرت دراسة من معهد "ماساتشوستس للتكنولوجيا" أن سـرعة انتشـار الأخبار الكاذبة على منصـة تويتر تفوق سـرعة الأخبار الحقيقية بسـت مرات، كما أن الكثير من المسـتخدمين يشاركون الأخبار من دون التأكد من صحتها، ويشكّلون نسبة 60٪. ما يؤدي إلى نشـوء الانحياز التوكيدي، حيث يشـارك الفرد الأخبار التي تدعم معتقداته حتى لو كانت خاطئة. وهذا لا يصـنع إلا دائرة مغلقة من الوهم، تبتلع الحقيقة وتسـتبدلها بما يرضـي الهوى والمعتقد، ما أثر على ثقة الإنسان في المؤسسات الإعلامية. من أجل ذلك، أصبح من المهم أن يتعلم الأفراد تقييم المعلومـات بشـكـل نقـدي، وتفحص المصـادر والمعلومات نفسـها، وهو الأمر الذي سـيسـاعد على اسـتعادة الثقة في المؤسسات المعرفية.[3]

ثالثا، تركز منصـات مثل فيسـبوك وتويتر على نشـر محتويات مثيرة وزائدة للتفاعل، بغض النظر عن كون المحتوى مفيدًا أو نظيفًا أو بناءً أو هدامًا. وذلك باسـتخدام اسـتراتيجيات وخوارزميات غير إنسـانية

وغير أخلاقية، يستغلها الناشطون على هذه المنصات لجذب الانتباه بإثارة الجدل أو التعاطف، مما يؤثر على الذوق العام كما يزيد حدة الانقسامات. ولعل أخطر ما في هذا النموذج أنه لا يكتفي بجذب الانتباه فحسب، بل يعمل ببطء على تشكيل الرأي العام وتوجيهه لخدمة مصالح اقتصادية وسياسية معينة، حتى يغدو المستخدم في نهاية المطاف مجرد أداة يتم دفعها حيث تشاء الخوارزميات، دون وعي منه أو مقاومة. ويعكس هذا الحاجة الملحة لتنمية الفكر، كي يكون العقل قادرًا على دعم المحتوى المفيد والبناء، ورفض المحتويات التي لا تعزز الفهم العميق ولا تضيف شيئًا للإنسان.[3]

و في الواقع، تأثير الفضاء الرقمي أعمق من ذاك الظاهري الذي تطرقنا إليه حتى الآن، إذ تتعدى أخطاره إلى التأثير النفسي والمعرفي على الأفراد. فالاستهلاك المفرط وغير المنظم للمحتوى الرقمي يؤدي إلى ما يسمى بـ "الإجهاد العقلي"، حيث يواجه المستخدم صعوبة نفسية في مواجهة ومعالجة هذا الكم الهائل من المعلومات بشكل فعال. يغمره هذا الطوفان حتى يفقد توازنه، فتتوه النفس قبل أن يعجز العقل. وبالتالي تتراجع قدرته على التفكير النقدي أو اتخاذ قرارات عقلانية، ومنه يصعب عليه فهم القضايا سواء في حياته الخاصة أو العامة. إنه مشتت تمامًا. ويأتي دور التنوير العقلي في التعامل مع هذا

الاستنزاف، بالابتعاد الدوري عن هذه المواقع، والتركيز على المعلومات العميقة عوض الانغماس في السطحية منها، واستعادة الإنسان قدرته على سلوك ما يلائمه، حتى لو أخطأ، فليس عليه أن يكون مثاليا كما توهمه الآلة. بل عليه أن يستعيد شرف الخطأ، حيث الخطأ وحده بوابة التعلم والنضج.[320]

كما أدى توسع العالم الرقمي إلى قلب الكثير من القيم الإنسانية. تقنيات مثل "التزييف العميق" تتيح صناعة واقع مزيف لا يقل إقناعًا عن الحقيقة، فتشوشت الحدود بين الصدق والكذب، وبين الواقع والوهم. في هذا السياق، يجد الإنسان نفسه محاصرًا داخل عالم جامد، خالٍ من المعاني الوجدانية والاعتبارات الأخلاقية، حيث تُختزل الأفعال إلى إجراءات تقنية لا تحمل أي بعد أخلاقي. ومثالًا على ذلك ما تم إلحاقه بفضيلة النسيان: فمن خصائص الإنسان أنه ينسى، وذلك جزء من آلية العفو والتسامح التي تُبنى عليها العلاقات الإنسانية. فمن دون نسيان الزلات والهفوات، لن تستقر علاقة، سواء داخل الأسرة أو في محيط الصداقة. غير أن العالم الرقمي جرد الإنسان من هذه القدرة، إذ احتفظت الآلة بكل ما يُقال ويُفعل، لتبقى الأخطاء والأحقاد محفوظة، تُستدعى في

[20] فوضى الرأي العام في العصر الرقمي د. فايز بن عبدالله الشهري جريدة الرياض

كل حين، فتتحول إلى وقود دائم للصـــراع والقطيعة. هكذا تنقلب الآلة على الإنســان، تجرده من إنســانيته، وتحبســه في قفص ذاكرة لا ترحم. والأسـوأ من ذلك، أصـبح الإنسـان يُسـاق طوعًا إلى فضـح ذاته ونشـر خصـوصـياته عبر المنصـات الافتراضـية، طمعًا في مشـاهدات زائلة أو إعجابات جوفاء. يتقهقر على المنصـــات ضـــاربًا بقيم الأقل وعيًا أو من هم أصــغر، ثم عندما يندم، يجد نفســه أســير ماضــيه، تطارده أخطاؤه، ويعجز عن طي الصـفحة والانطلاق من جديد. فالخصـوصـية التي فرّط فيها صـارت ملكًا للآخرين، ولا سـبيل لاسـتعادتها، والأثر السـيء الذي خطّه لا مجال لمحوه.[421]

أما في مجال الفن والإبداع، فقد انعكس هذا الســقوط الأخلاقي على الذوق العام، حتى صـــارت الأعمال الفنية تخضــع لمعايير التحليل المـادي والعلمي، بـدل أن تُقـاس بميزان الوجـدان والروح. ولم يتوقف الأمر عند النصوص، بل امتد إلى النقد نفسه، الذي صار مفتونًا بالمناهج العلمية والتجريبية، يسقط نظريات الفيزياء وطب الأعصـاب قسرًا على الفن والأدب، ويجرده من طبيعتـه الوجـدانيـة، وكـأنمـا يريـد أن يقيس الروح بمقاييس المـادة. وهكذا تلاشـــت الحدود بين المعاني والقوانين

[21] مقال آداب السلوك الرقمي وآثاره على الشباب موقع الموسوعة

الجامدة، ففقد الفن وظيفته السامية في التعبير عن روح الإنسان وعمق تجربته. أضف إلى ذلك أن الفن جرّ على نفسه التقهقر حين سمح لتقنيات جذب الانتباه التي تفرضها الخوارزميات أن تتسلل إلى ذائقته. يقول الفنان: سأواكب الجمهور، بينما الجمهور نفسه مساقٌ بالتقنية، قد تبلدت مستقبلاته الذوقية والحسية، وأصبح لا يرى في العمل الفني قيمة ما لم يُفجر فيه مشاعر متضخمة ومفتعلة. وحين خضع الفنان لهذا الاستفزاز، فقد عزته الفنية وأضاع رسالته.[4]

وأمام هذا الواقع، يبقى السؤال مفتوحًا: هل يستطيع الإنسان أن يتدارك نفسه قبل أن تُحكم الرقميات قبضتها عليه؟ فالخطر الأكبر يكمن في انتقال هذا الخضوع من طوره الخفي إلى طوره المعلن، حيث يفقد الإنسان ما تبقى له من إرادة وحريّة، ويُختزل إلى مجرد كائن تنفيذي محكوم بالخوارزميات والبرمجة. إنها لحظة فارقة، فإما أن يستيقظ الإنسان على فداحة ما يُساق إليه، أو يستسلم لهذا التيه الذي لا خلاص منه. وإن استمر هذا المسار، فلن يضيع منه تاريخه وحسب، بل ستذوب ثقافته وهويته في فضاءات رقمية لا تعترف بقيمة المعنى، ولا ترى الإنسان إلا بيانات وأرقامًا قابلة للاستثمار. فعليه، قبل أن يحدث ذلك، أن يستعيد سيطرته على نفسه كفرد أولًا، ثم يُوعي الآخرين ممن يقربونه بخطورة الوضع الراهن.

إن أول صـخرة يقف عليها الإنسـان للنجاة من هذا المد الرقمي هي استعادة ملكة التفكير النقدي، وتعتبر الباب الأول الموصد أمام جيل اليوم، والذي بعد فتحه سـيتمكن الفرد من تطبيق الحلول التالية على اختلافها. فالتفكير النقدي هو من سـيحرر الإنسـان من الانحيازات الشـخصـية، فيتعلم مهارات التحقق من صـحة الأفكار والمعلومات والأخبار، وتتبع مصـادرها، هكذا يسـترجع "حذره" فتكون تبعيته لمؤسسات أكثر شفافية ووضوحا في عرض المعلومات التي تهمه.

وليقدر العقل على تقييم ما يدخل إليه من المهم أن يأخذ بين فينة وأخرى راحة، ومهلة، عبر تقنين استهلاك المحتوى الرقمي وتخصيص مزيد من الوقت للقراءات المعمقة، بعيدًا عن التسـطيح والسـرعة، لابد لإنسـان اليوم أن يعيش ببطء، ليتطور على مهل عبر التجربة والخطأ، بعيداً عن رقابة الآلة. وإدراكه لذلك سـيعيد إليه إحسـاسـه بقيمته الفردية وليس كمجرد رقم استهلاكي يتم التلاعب به بواسطة الخوارزميات، إذن فتحرير نفسـه من السـعي وراء التفاعلات الافتراضـية والمشـاعر المتضخمة المستهلكة لطاقته سيساعده على أن يهدأ، يخمد، ومنه يراقب.

وفي نفس السـياق، الحذر من اسـتهلاك الذات عبر المشـاركة المفرطة لحياته على مواقع التواصـل الاجتماعي هو حماية لها من الابتذال، وصون لخصوصيته وكرامته من المتاجرة المذلة. كما عليه أن

يعيد تربية ذائقته الفنية من جديد، بالاطلاع على فنون العصر الذي سبق عصر الرقمنة أو قبل أن تستعمره بالكامل، كيلا يكتفي بالسطحيات بعد اليوم أو الانبهار اللحظي، فيفهم أن الفن الحقيقي يسمو على قوانين السوق، وبه يعبر الإنسان عن نفسه وتجاربه العميقة. فالإنسان كائن أكبر من إنجازاته، ومما يقدمه، إنه ليس كائنًا تنفيذيا مبرمجًا على الاستجابة، والآلة أداة ولا يجب أن يتم اتخاذها قدوة، فأخطاء الإنسان ولا مثاليته، وسعيه رغم ذلك إلى أن يكون أفضل مما كان عليه البارحة.. ذاك هو الكمال، الكمال فكرة فاتنة تقوم على مقاومة الأخطاء.

هناك نقطة تركتها إلى النهاية لأهميتها العظيمة ألا وهي دور الآباء، فنحن، الجيل الحالي، ربما قد تم تلويثنا وسنعاني لتنظيف هذا التلوث، ومن أجل ذلك تقع علينا مسؤولية تجنيب أطفالنا المستنقع الذي مررنا منه. إن توعية الأطفال المبكرة على احترام خصوصيتهم، والحرص قدر الإمكان على نظافة المحتوى الذي يتابعونه، وغرس مهارات التفكير النقدي منذ الصغر، سيكونون سببًا في نضوجهم بشكل بديع؛ سيتعلمون أن الحقيقة لا تُقاس بعدد التفاعلات، وأن قيمتهم موجودة ولا يحتاجون إلى إثبات أي شيء للعالم. سيتعلمون ألا يكرسوا أنفسهم للاستهلاك، وأن العالم الافتراضي لا ينسى. وسنكون نحن أولًا قدوة لأبنائنا في التعامل مع هذا الفضاء الرقمي المخيف. مفهوم "ليس كل ما

يُقال يُصـدق" يجب أن يتم تثبيته في عقول الصـغار. إنها مسـؤولية تبدأ من حوار بسيط، يومي، وصابر، سينشئ هذا الحديث الواعي عقلًا قادرًا على رؤية الأمور كما هي، دون أن يتيه، دون أن يتم استغلاله.

ختاما، ظن الإنسان يومًا أن الفضاء الرقمي سيمنحه حريةً أوسع وانفتاحًا أكبر، لكنه ما إن استسلم له حتى وجد نفسه مكبلًا بقيود خفية لا يراها، تشـده من حيث لا يشـعر. لم تكن التقنية هي الخطر الحقيقي، بل هذا التفريط في زمام الوعي حتى غدت الآلة تسـتهلكه، بدل أن يُحسـن اسـتخدامها كما يجب. لذلك، فالنجاة ليسـت بالانسـحاب ولا بالهرب، بل بأن نمتلك تلك الملكة التي تُبقي وعينا يقظًا، فتجعلنا نستثمر هذه الأدوات دون أن نصـير نحن أدوات في خدمتها. إنها معركة الإنسـان الأخيرة للحفاظ على جوهره، معركة لا تُخاض بالسـلاح ولا بالدم، بل بالعقل والبصـيرة وحدهما، ولن ينتصـر فيها إلا من عرف نفسـه حقّ المعرفة وحرّرها من كل قيد... حتى قيد هذا العصر ذاته.

التعليم والتنوير: هل تعزز مناهجنا التفكير النقدي؟

كوثر ملوك: *كاتبة وشاعرة مغربية من مواليد 2006 في مدينة طنجة.*

مقدمة:

في قلب كل أمة تنبض أسئلة جوهرية تُعيد تشكيل حاضرها وترسم ملامح مستقبلها، ومن بين هذه الأسئلة التي تُلحُّ على العقل العربي والإسلامي، خاصة في دول المغرب العربي، سؤالٌ محوري يتصل بدور التعليم في بناء العقل النقدي، باعتباره حجر الأساس في نهضة الشعوب وتقدمها. فالتعليم ليس مجرد عملية نقل للمعرفة، بل هو مشروع حضاري يهدف إلى تحرير العقول من قيود التقليد الأعمى، وإعداد أجيال قادرة على التفكير المستقل، واستنطاق الواقع، وإنتاج معرفة جديدة بدلًا من الاكتفاء باستهلاك ما يُملى عليها.

غير أن واقع المناهج الدراسية في عالمنا العربي يثير العديد من التساؤلات حول مدى قدرتها على تحقيق هذه الغاية. فهل استطاعت هذه المناهج أن تكون جسرًا حقيقيًا نحو التنوير، وأن تواكب التحولات الفكرية والعلمية المتسارعة؟ أم أنها لا تزال تدور في فلك التلقين

والاستظهار، مكرِّسة ثقافة الامتثال بدلًا من التحليل والنقد؟ إن مجتمعات اليوم لا تحتاج إلى أفراد يُكررون ما لُقِّنوا، بل إلى عقول مبدعة قادرة على مساءلة الواقع، واختبار الأفكار، والخروج برؤى جديدة تتجاوز الأطر التقليدية.

وفي عصرٍ أضحى فيه التفكير النقدي ركيزة أساسية في نهضة الأمم، لم يعد إصلاح التعليم خيارًا كماليًا، بل بات ضرورة ملحة تفرضها التحديات المعرفية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجه مجتمعاتنا. إن الطريقة التي نُعلم بها أبناءنا اليوم ستحدد شكل المستقبل الذي ينتظرهم، وستعكس إما طموحاتنا في التقدم والانفتاح، أو إخفاقاتنا في مواكبة العصر. فهل نحن نُهيئهم ليكونوا مفكرين مستقلين قادرين على الإبداع والابتكار؟ أم أننا نكرّس نظامًا تعليميًا يُخضعهم لمنطق التلقين، فيحرمهم من أدوات التفكير الحر، ويجعلهم أسرى للجاهز والمكرر؟

إن هذا السؤال لا يقتصر على كونه نقاشًا نظريًا بين الأكاديميين، بل هو تحدٍّ مصيري يمسّ جوهر وجود أمتنا، ويحدد موقعها ضمن مصافّ الأمم المتقدمة. لذا، فإن إعادة النظر في مناهجنا التعليمية، والعمل على تطويرها بما يغرس في المتعلم روح النقد والتساؤل، ويحرره من قيود الأفكار الجامدة، ليست مجرد حاجة

إصـــلاحية، بل ضـــرورة حتمية تمليها متطلبات النهضـــة والتقدم، إذا ما أردنا أن نصـــنع مســـتقبلًا أ أكثر تحررًا من القيود التي كبلت نهضـــتنا لعقود.

أولاً: ما هو التفكير النقدي؟

التفكير النقدي هو فن التســـاؤل وعلم الشـــك المنهجي، وأداة التحرر من قيود الأفكار الجاهزة. إنه القدرة على النظر إلى العالم بعينٍ لا ترى الأشـــياء كما هي فحســـب، بل تتســـاءل: لماذا هي هكذا؟ وكيف يمكن أن تكون مختلفة؟ فالتفكير النقدي لا يقتصـــر على كونه مهارة تحليلية فقط، بل هو نهج فكري متكامل، يتطلب مســـتوى عميقًا من الفضول العقلي والانفتاح الفكري والشجاعة في مواجهة المسلمات. وكما يقول الفيلسـوف رينيه ديكارت: "الشـك أسـاس الحكمة"[22] مما يعني أن القدرة على التساؤل والتشكيك المنهجي هي جوهر الوعي النقدي.

في أبســـط تعريفاتـه، التفكير النقـدي هو القـدرة على تحليـل المعلومـات، وتقييم الأدلـة، وبنـاء الحجج المنطقيـة، واتخـاذ قرارات مستنيرة، لكنه يتجاوز ذلك ليصبح أسلوب حياة. فهو يحثّنا على ألا نقبل

[22] "الشك أساس الحكمة." — رينيه ديكارت (بالفرنسية: René Descartes (31 مارس 1596 — 11 فبراير 1650)، فيلسوف، وعالم رياضياتي وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ«أبو الفلسفة الحديثة»

أي فكرة دون إخضـــاعها لاختبار العقل، وأن نتســـاءل دائمًا: هل هذا منطقي؟ هل هذا صـحيح؟ كما يوضـح الباحث ريتشـارد بول، أحد أبرز رواد التفكير النقدي، أن التفكير النقدي يتطلب وعيًا عميقًا بمنهجيات التفكير نفسها.

وفي عصـــر الثورة الرقمية، حيث تتدفق المعلومات بســـرعة البرق، أصـــبح التفكير النقدي ســـلاحًا ضـــروريًا لمواجهة التضـــليل المعلوماتي والأخبار الكاذبة. فوفقًا لتقرير صادر عن مجموعة ستانفورد لتعليم التـاريخ، فـإن معظم الطلاب يجـدون صـــعوبـة في التمييز بين الأخبار الموثوقة والمعلومات المضللة[2], مما يبرز الحاجة الملحّة لتعزيز التفكير النقدي في التعليم. فبدون هذه المهارة، يصـــبح الفرد عرضـــة للتلاعب به، سـواء من خلال الدعاية السـياسـية، أو الإعلانات التجارية المضـللة، أو حتى الأفكار المتطرفة التي تنتشـر عبر وسـائل التواصـل الاجتماعي.

لكن التفكير النقدي ليس مجرد أداة دفاعية؛ بل هو أيضًـا محرك للإبداع والابتكـار. فمن خلال التســـاؤل عن الوضـــع الراهن، يمكننـا اكتشـــاف حلول جديدة للمشـــكلات القديمة، وبناء رؤى مســـتقبلية أكثر إشـرافًا. وكما يؤكد عالم النفس إدوارد دي بونو، صـاحب نظرية التفكير الجـانبي، أن الإبداع يبدأ عندما نتعلم كيف نشـــكّك في الافتراضـــات

القائمة، مما يعني أن القدرة على النقد تفتح الأبواب أما إمكانيات غير مسبوقة في جميع المجالات، من التكنولوجيا إلى الفلسفة والسياسة.

إذن، السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أنظمتنا التعليمية، خاصة في دول المغرب العربي، تُعدّ الطلاب لامتلاك هذه المهارة الحيوية؟ أم أنها لا تزال تعتمد على أساليب تقليدية تعيق نمو التفكير النقدي؟ للإجابة على هذا السؤال، علينا أولاً أن ننظر إلى واقع المناهج الدراسية، ونفهم كيف تُصمم، وما هي التحديات التي تواجهها في تعزيز هذه المهارة. إن بناء عقول قادرة على التفكير النقدي ليس ترفًا فكريًا، بل هو ضرورة ملحّة تفرضها تعقيدات العصر الحديث، ومسؤولية يجب أن تضطلع بها المؤسسات التربوية لضمان مستقبل أكثر وعياً وإبداعاً.

ثانياً: التفكير النقدي والحداثة والتنوير

إذا كان التفكير النقدي هو فن التساؤل، فإن الحداثة والتنوير هما الثمرة الحقيقية لهذا التساؤل المستمر. فمنذ عصر التنوير في القرن الثامن عشر، أصبح التفكير النقدي حجر الزاوية في بناء المجتمعات الحديثة، حيث مهّد الطريق لقيام أنظمة سياسية ديمقراطية، وتطوير العلوم، وترسيخ حقوق الإنسان. لقد كان هذا التحول الفكري إعلانًا عن

نهاية العصـــور التي كان فيها الفكر مُكبّلًا بقيود التقليد والســلطة الدينية المطلقة، وفتح الباب أمام الإنسان ليكون سيدًا لعقله.

الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، أحد أبرز وجوه التنوير، عبّر عن هذا المبدأ بقوله: "التنوير هو خروج الإنســـان من قصـــوره الذي اقترفه في حق نفســه. وهذا القصــور هو عجزه عن اســتخدام عقله إلا بتوجيه من إنســـان آخر."[23] في جوهر هذا التعريف، يكمن تصـــور عميق للحرية الفكرية بوصـــفها تحررًا من التبعية، لا فقط للســـلطات الخارجية، بل أيضًا من القيود التي يفرضها الخوف من التفكير المستقل. فالحداثة، في معناها العميق، ليســـت مجرد تقدم تقني أو مادي، بل هي قبل كل شيء ثورة في طريقة التفكير، حيث يصبح العقل قادرًا على نقد الواقع ومساءلته بلا قيود.

لكن الســؤال الذي يفرض نفســه اليوم: هل لا نزال نعيش روح التنوير، أم أننا عدنا إلى عصـر "القصـور الذهني" الذي حذر منه كانط؟ في عالمنا العربي، وخاصـــة في دول المغرب العربي، نجد أن مســيرة التنوير لا تزال غير مكتملــة. فبينمــا نحتفــل ببعض مظــاهر التقــدم

[23] إيمانويل كانط، مقالة "ما هو التنوير؟" (1784)

التكنولوجي والعمراني، لا تزال البنية الفكرية والاجتماعية تعاني من انتكاسات كبيرة تعوق تحقيق الحداثة بمعناها الحقيقي.

أحد الأسباب الجوهرية لهذا التعثر هو الإعلام، الذي بدل أن يكون وسيلة لنشر الوعي وتعزيز النقاش الحر، أصبح في كثير من الأحيان أداةً لترسيخ الجهل وتعزيز ثقافة الاستهلاك والترفيه السطحي. فالإعلام الموجَّه يُكرّس التصورات النمطية، ويُضعف حسّ التساؤل، ويغرق الأفراد في قضايا هامشية على حساب الفكر النقدي العميق.

إضافةً إلى ذلك، فإن أنظمتنا التعليمية لم تتبنَّ بعد فلسفة تعزز التفكير النقدي كأداة للتغيير. فالمناهج الدراسية، التي يفترض أن تكون جسورًا نحو العقلانية والابتكار، أصبحت في كثير من الأحيان سجونًا للفكر، تُلقِّن ولا تُعلِّم، تُكرّر ولا تُبدع. فهي تعتمد على الحفظ والتلقين، وتهمّش القدرة على التحليل والاستنتاج، مما يحرم الطلاب من ممارسة التفكير النقدي الذي يُعَدّ ركيزة كل نهضة فكرية. كما يقول الفيلسوف التربوي جون ديوي: "التعليم ليس تحضيرًا للحياة؛ التعليم هو الحياة نفسها"[24] ، بمعنى أن المدرسة لا ينبغي أن تكون مجرد محطة انتقالية

[24] جون ديوي : كتاب "الديمقراطية والتربية، (1916)

نحو المستقبل، بل يجب أن تكون فضاءً ديناميكيًا يعكس الواقع، ويدفع الأفراد إلى التفكير والتفاعل معه بوعي نقدي.

إذن، كيف يمكن لمناهجنا الدراسية أن تتحول إلى أدوات للتنوير في عصر الحداثة؟ كيف يمكن أن تنتج جيلًا قادرًا على مساءلة الواقع، وتحليل الأفكار، وخلق رؤى جديدة؟

ثالثاً: واقع التعليم في المغرب بين الحداثة والتقليد

من منطلق قول كانط بأن التنوير هو تحرير العقل من قصوره، فإن السؤال الذي يفرض نفسه هو: هل أنظمتنا التعليمية في دول المغرب العربي تُحرر العقل أم تُكبله؟ للأسف، يبدو أن الواقع يشير إلى اتجاه معاكس لروح التنوير. ففي دول مثل المغرب والجزائر وتونس، تُعتبر المناهج الدراسية من بين الأكثر كثافة في العالم، حيث يدرس الطلاب من الصباح إلى المساء، غالبًا دون تركيز حقيقي على تنمية مهارات التفكير النقدي. فهذا النوع من التعليم، الذي يعتمد على الحفظ والاستظهار، يعيق قدرة الطالب على تطوير قدراته العقلية والتفاعل مع قضايا الواقع.

هذا النموذج التعليمي، الذي يُركّز على كمّ المعلومات بدلاً من كيفية التفكير، يخلق جيلًا قادرًا على اجتياز الامتحانات، لكنه عاجز عن

مواجهة تحديات الحياة الواقعية. فعلى الرغم من أن الطلاب يتلقون كميات هائلة من المعرفة، إلا أن هذه المعرفة تبقى سطحية وغير مرتبطة بالسياقات الحياتية أو العملية. كما يقول الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو: "المعرفة ليست مجرد فهم العالم، بل هي أيضًا أداة للسلطة." [25] فالمعرفة، في هذا السياق، لا تُمنح للطلاب باعتبارها أداة لتحفيز الإبداع أو التحليل النقدي، بل تُستخدم في كثير من الأحيان كوسيلة لتدجين العقول وتعزيز الامتثال.

في هذا السياق، يمكن القول إن النظام التعليمي في المغرب يعاني من تحديات كبيرة، حيث لا تزال المناهج الدراسية تُستخدم كأداة لتعزيز الامتثال والتبعية، بدلاً من تشجيع التساؤل والتحرر الفكري. إذ أن هذه المناهج، التي لا تأخذ بعين الاعتبار تنمية القدرة على التفكير النقدي والاستقلال الفكري، تساهم في تكريس ثقافة التبعية والتقليدية. ورغم أن هذا النموذج التعليمي يساهم في تخريج طلاب قادرين على استرجاع المعلومات وحفظها، إلا أنهم يفتقرون إلى القدرة على التفكير

[25] " مستوحاة من أفكار ميشيل فوكو، خاصة في كتابه إرادة المعرفة (La volonté de savoir), حيث يناقش العلاقة بين المعرفة والسلطة وكيف تُستخدم المعرفة كأداة للسيطرة .

النقدي والتحليل، ما يجعلهم غير قادرين على التفاعل مع متغيرات العالم المعاصر أو مواجهة تحديات الحياة العملية.

وقد أشارت دراسة أكاديمية للدكتور الحبيب استاتي زين الدين إلى أن "تنمية التفكير النقدي بالفضاء التربوي في المغرب تواجه صعوبات منهجية، إذ يعتمد التعليم بشكل رئيسي على التلقين، دون أن يوفر للتلاميذ بيئة تعليمية تحفّزهم على التفكير النقدي والإبداعي" [26]. ويؤكد تقرير آخر على موقع هسبريس ، أن البنك الدولي أوصى المغرب بـ"الابتعاد عن نظام الحفظ والتلقين في المدارس، وتشجيع نظام التفكير النقدي والإبداع، بهدف تحسين جودة التعليم وضمان تأهيل التلاميذ لمتطلبات سوق العمل المستقبلية [27]".

إلى جانب ذلك، يُظهر الواقع الحالي أن معدلات التسرب المدرسي ما تزال مرتفعة، حيث أفاد وزير التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة في المغرب، شكيب بنموسى، في تصريحات أوردها موقع العربي الجديد، بأن "حوالي 331 ألف تلميذ ينقطعون عن الدراسة سنويًا في مختلف مناطق المملكة، مع معدل هدر مدرسي يصل

---

[26] مجلة تبيُّن للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية , مقالة " تنمية التفكير النقدي بالفضاء التربوي بالمغرب " للدكتور الحبيب استاتي زين الدين

[27] موقع هسبريس ؛ تقرير يوصي المغرب عن نظام الحفظ و التلقين في المدارس

إلى 5.3% على المستوى الوطني [...] كما أن. معدلات التسرب المدرسي تعكس عجز النظام التعليمي عن احتفاظ الطلاب في مسارهم الدراسي، مما يستدعي إصلاحات عميقة لضمان استمرارية التلاميذ داخل المنظومة التعليمية [28]".

وفي هذا الإطار، يواجه الطالب في مادة الفلسفة، على وجه الخصوص، تحديات فريدة. فهو غالبًا,ما يجد نفسه أمام نصوص فلسف متناقضة، تطرح أفكارًا متضاربة حول قضايا جوهرية مثل الوجود، المعرفة، والأخلاق. في ظل غياب التفكير النقدي، يصبح الطالب عاجزًا عن تحديد أي من هذه النصوص يحمل الحقيقة أو أي منها أكثر إقناعًا. بدلاً من أن يكون قادرًا على تحليل هذه النصوص ومقارنتها وتقييمها، يجد نفسه غارقًا في حيرة من أمره، غير قادر على تكوين رأي مستقل أو اتخاذ موقف واضح. هذا الوضع يعكس إشكالية أعمق في النظام التعليمي، حيث يتم تقديم المعرفة كحقائق ثابتة يجب حفظها، بدلاً من اعتبارها موضوعًا للنقاش والتفكيك والتحليل.

كما تشير نتائج اختبارات PISA الدولية لعام 2022 إلى تراجع ملحوظ في مستويات التلاميذ المغاربة مقارنة بدورة 2018.

[28] موقع العربي الجديد "331 ألف تلميذ ينقطعون عن الدراسة سنوياً في المغرب" بقلم عادل نجدي

ففي الرياضـيات، انخفض المعدل من 368 نقطة إلى 365 نقطة، وفي العلوم من 377 إلى 365 نقطـة، وفي القراءة من 359 إلى 339 نقطـة. نتيجـةً لـذلـك، تراجع ترتيـب المغرب إلى الرتبـة 71 في الرياضـيات، و79في القراءة، و76في العلوم من أصـل 81 دولة مشـاركة. وفقًا للتقرير، فإن 18% فقط من التلاميذ المغاربة وصـلوا إلى المستوى الثاني في الرياضيات، مقارنة بـ 69% في منطقة الشرق الأوسـط وشـمال إفريقيا [29]"هذه النتائج تعكس أزمة حقيقية في أنظمتنا التعليمية، والتي لا تُعدّ الطلاب لمواجهة تحديات العصر الحديث.

يقول تقرير صـادر عن مؤسـسـة كارنيجي للسـلام الدولي (2022) إن "مهنة التدريس في العديد من الدول العربية ليسـت مهنة ذات قيمـة عـاليـة من نـاحيـة الأجر أو القيمـة الاجتمـاعيـة أو المهنيـة." بـالإضـافة إلى ذلك، فإن النظم التعليمية العربية "لا تدعم المواطنة الديمقراطية والمشـاركة"، بل يتم تشـجيع المعلمين على نقل المهارات

29 منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD برنامج , PISA
https://www.oecd.org/en/publications/pisa-2022-results-volume-i-and-ii-country-notes_ed6fbcc5-en/morocco_10dfcb74-en.html

المعرفية ذات المستوى الأدنى (الاسترجاع والفهم) على حساب المهارات العليا (التطبيق، التحليل، التوليف، التقييم، والتفكير النقدي)[30].

إضافةً إلى ذلك، تُعتبر هيمنة اللغة الفرنسية في النظام التعليمي المغربي من بين العوامل التي تُعيق الفهم العميق للمواد الدراسية، خاصةً في المجالات العلمية. تُشير تقارير أكاديمية إلى أن تدريس المواد العلمية والتقنية باللغة الفرنسية، وهي لغة قد لا يتقنها العديد من التلاميذ، يؤدي إلى ضعف استيعابهم للمفاهيم الأساسية، مما يساهم في تدني مستوى التحصيل الأكاديمي وصعوبة تطوير التف النقدي. "ويورد الصدوقي، في حديث مع جريدة هسبريس، تأثيرات نفسية وتربوية سلبية للصراع اللغوي بالمغرب، حيث يعاني الطفل من صعوبات في التكيف مع اللغات الأجنبية، خاصةً الفرنسية. يؤكد أن تعلم اللغات في سن مبكرة يسبب اضطرابًا في الهوية وتداخلًا لغويًا يؤثر على النمو النفسي والعقلي. كما يشير إلى أن الازدواجية اللغوية قد تعيق عملية الاندماج الاجتماعي، وتؤدي إلى استلاب ثقافي وصعوبة في إتقان اللغتين، الوطنية والأجنبية، مما يؤثر سلبًا على مسار المتعلم الدراسي. وخلص

30 موقع مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي ,واقع التربية المواطنية في الدول العربية , https://carnegieendowment.org/research/2013/05/a-review-of-citizenship-education-in-arab-nations?center=europe&lang=ar

إلى أن تأخير تعلم اللغات الأجنبية يعتبر الأنسب لتفادي هذه التأثيرات[31] ".

علاوةً على ذلك، أشار تقرير نُشر في موقع "هوية بريس" إلى أن اعتماد اللغة الفرنسية كلغة تدريس في المواد العلمية يخلق فجوة معرفية بين الطلاب والمحتوى الدراسي، حيث يواجه العديد منهم صعوبات في فهم المفاهيم المعقدة، مما يؤثر على تحصيلهم الدراسي ويزيد من معدلات الفشل والتسرب المدرسي[32] .

على الجانب الآخر، نجد دولًا كبرى مثل الصين، ألمانيا، واليابان تعتمد على لغاتها الوطنية في تدريس جميع العلوم، ورغم ذلك فهي تحقق تقدمًا هائلًا في البحث العلمي والابتكار، متجاوزةً دولًا تابعة ثقافيًا للغرب، مثل المغرب والجزائر وتونس، حيث لا تزال لغة المستعمر هي المسيطرة على الأنظمة التعليمية. هذه الحقيقة تكشف أن استمرار فرض الفرنسية في التعليم لا يعود إلى أسباب بيداغوجية بقدر ما يعكس استمرار الهيمنة الثقافية والاستعمار الفكري الذي يسعى لإبقاء الشعوب التابعة في موقع التخلف. فاللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل،

31 محمد الصدوقي، "باحث يرصد تأثيرات فرض الفرنسية على تلاميذ المغرب"، موقع هسبريس – حسن الأشرف

32 " اللغة والتعليم: اللغة الفرنسية والمدرسة المغربية نموذجًا"، هوية بريس – زوهير النبيه

بـل هي هويـة وأداة للتحرر الفكري والإبـداعي، وعنـدمـا تُفرض لغـة المســـتعمر كلغة للتعليم، فإن ذلك يعني تكريس التبعية الثقافية وجعل المعرفة وسيلة لإدامة السيطرة بدلًا من أن تكون أداة للتحرر.

إن إصـــرار النخب الحاكمة على الإبقاء على الفرنســـية رغم فشـــلها الواضـــح في تحســـين جودة التعليم، ورغم المطالبات الشـــعبية والأكاديمية بإعطاء الأولوية للعربية والأمازيغية أو حتى الإنجليزية، ليس إلا دليلًا على استمرار الإرث الاستعماري في سياساتنا التعليمية. فبينما تدرس الدول المتقدمة بلغاتها الأم وتنفتح على الإنجليزية كلغة علم وتكنولوجيا، يتم إرغام أبناء المســـتعمرات الســـابقة على التعلم بلغة لم يختاروها، مما يجعلهم في مواجهة نظام تعليمي لا يخدم ســـوى النخب الفرنكوفونية المرتبطة بالمصالح الفرنسية. هذه السياسة لا تخدم سوى استمرار التبعية الفكرية والاقتصـادية، وتحرم الأجيال القادمة من حقها في تعليم متجذر في هويتها الوطنية وقادر على خلق نهضة حقيقية.

رابعاً: نحو نظام تعليمي يعزز التفكير النقدي والتحليل.

لتحقيق نقلـة نوعيـة في التعليم، يجـب أن تتحول المنـاهج من الاعتماد على التلقين إلى التركيز على الفهم والتحليل. يمكن أن تشمل

المناهج أنشـطة مثل المناقشـات الصـفية، والمشـاريع البحثية، وحـل المشـــكلات الواقعيـة، ممـا يعزز التفـاعـل بين الطلاب ويطور مهاراتهم في التفكير النقدي والإبداعي. كما يجب أن تعتمد الامتحانات على أسئلة مفتوحة تقيس القدرة على التحليل والتركيب والتقييم، بدلاً من الأســئلة التي تعتمد على اســترجاع المعلومات بشــكل آلي. هذا التحول يتطلب إعادة هيكلة شــاملة لنظام التقييم، بحيث يصــبح قادرًا على قياس مدى فهم الطالب لقدرته على تطبيق المعرفة في سياقات جديدة.

من الضروري أيضًا توفير تدريب مكثف للمعلمين على أساليب التدريس التي تعزز التفكير النقدي، مثل طرح الأســئلة المفتوحة وإدارة المناقشـات الصـفية. وفقًا لتقرير صـادر عن منظمة التعاون الاقتصـادي والتنمية (OECD)، فإن "المعلمين الذين يتمتعون بمهارات تدريســية متقدمة قادرون على تحســين نتائج الطلاب بشــكل ملحوظ، خاصــة في مجالات التفكير النقدي وحل المشـكلات[33] ". بالإضــافة إلى ذلك، يجب تعزيز ثقافة التسـاؤل والنقد في المدارس والمجتمعات، من خلال أنشـطة

[33] منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)، "تقارير عن جودة التعليم والتدريب المهني للمعلمين"، 2020.

مثـل النوادي الثقـافيـة والمنـاظرات الطلابيـة، والتي تســـهم في بنـاء شخصيات طلابية قادرة على التعبير عن آرائها بثقة واحترام.

إذن، كيف يمكن لهذه الدول أن تتحول من نموذج التعليم التقليدي إلى نموذج تعليمي يعزز التفكير النقدي والتنوير؟ وكيف يمكن للمنـاهج الدراسية أن تكون جسرًا نحو الحداثة بدلاً من أن تكون قيدًا على العقل؟ للإجابة على هذه الأســئلة، علينا أن ننظر إلى التجارب الدولية الناجحة، ونفهم كيف يمكن تطبيقها في ســـياقنا المحلي. على ســـبيل المثال، في فنلندا، التي تُعد واحدة من أفضـــل النظم التعليمية في العالم، يتم التركيز على "التعلم القائم على المشـــاريع والتفكير النقدي بدلاً من التلقين، مع منح المعلمين درجة عالية من الاســـتقلالية في تصـــميم المناهج وطرق التدريس[34]". وفي ســـنغافورة، تم تطوير نظام تعليمي يعتمد على "حل المشـــكلات والتفكير الإبداعي، ممـا جعلهـا تحتـل مراتـب متقدمـة في الاختبارات الدولية مثل اختبارات[35] . "PISA بالإضافة إلى ذلك، تشير

[34] منظمة اليونسكو، "تجربة فنلندا التعليمية: دراسات حالة"، 2019.
[35] معهد التربية بسنغافورة، "نظام التعليم في سنغافورة: تقارير وتحليلات"، 2021.

الدراســات إلى أن "تطوير البنية التحتية التعليمية وتوفير التمويل الكافي هما عاملان أساسيان لنجاح أي تحول تعليمي[36] ".

لتحقيق ذلك في سياقنا المحلي، يمكن الاستفادة من هذه التجارب من خلال تطوير مناهج تعليمية مرنة تعتمد على التفكير النقدي، وتوفير بيئة تعليمية تدعم الابتكار. كما يجب تعزيز التعاون بين المدارس والجامعات والمؤسسات البحثية لضمان تحديث المناهج بشكل مستمر بما يتوافق مع التطورات العالمية. أخيرًا، يجب أن تكون هناك سياسات تعليمية واضـــحة تدعم هذا التحول، مع توفير التمويل الكافي لتدريب المعلمين وتطوير البنية التحتية التعليمية.

خاتمة

التعليم، في جوهره، هو الفعل الذي يعيد تشكيل العقول، يُحررها من قيود الجهل والتبعية الفكرية، ويضعها على طريق المعرفة

والتطور. إنه ليس مجرد عملية اســترجاع للمعلومات، بل هو دعوة للتفكير العميق، لتحليل الواقع والتفاعل معه بطريقة نقدية. في ســياقنا، نحن أمام مفترق طرق: إما أن نكون جزءًا من النظام التقليدي

[36] منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD)، "اختبارات PISA: تقارير عن أداء الدول في التفكير النقدي وحل المشكلات"، 2022.

الذي يكرس الحفظ والتلقين، أو أن ننتقل إلى نموذج يعزز التفكير النقدي ويطور من قدرات الفرد الإبداعية. ولكن هذا الاختيار ليس مجرد مسألة أكاديمية، بل هو قرار سياسي واجتماعي يعكس مدى قدرتنا على تجاوز الحواجز التاريخية التي أسهمت في تشكيل عقلية تعتمد على الانقياد والتبعية.

في الواقع، يطرح التنوير نفسه كخيار استراتيجي، ليس فقط من أجل تطوير الأفراد، بل من أجل بناء مجتمعات قادرة على التفاعل مع التحديات الحديثة. وهو يتطلب، إلى جانب الإرادة السياسية، إصرارًا اجتماعيًا على تحرير التعليم من القيود التي فرضتها ثقافة القهر والتسلط، تلك التي أسهمت في تدمير الفكر النقدي والمبادرة الفردية. فالتعليم لا يُمكن أن يكون أداة للهيمنة الفكرية، بل ينبغي أن يكون منبرًا للتحرر من ماضي استعماري ما زال يلاحقنا في كل تفاصيل حياتنا اليومية، بما فيها منظوماتنا التعليمية التي تكرس ثقافة الانقياد والاستسلام.

إن التنوير ليس مجرد فلسفة فكرية، بل هو مشروع سياسي واجتماعي يتطلب كسر حواجز قديمة فرضها الزمن والتاريخ. يجب أن نكون مستعدين لطرح الأسئلة الصعبة، حول مصالحنا الوطنية، وعن مكانتنا في عالم سريع التغير. إذن، هل نمتلك الإرادة لتغيير مناهجنا

بحيث تصبح أداة للتغيير المجتمعي، أم أننا سنظل أسرى لماضي مرير لا يُمكننا الفكاك منه؟ هل نختار أن نكون جزءًا من عملية إصلاح حقيقية تبدأ من التعليم، أو أننا سنظل ننقلب على أنفسنا في دائرة مغلقة، نكرر الأخطاء نفسها التي فشلنا في تجاوزها؟

نقد نيتشه للأخلاق التقليدية

حسام دهبي: ***كاتب مغربي وُلِد عام 2004 بمدينة وزان.***

يُعَدّ نيتشه من أبرز الفلاسفة الذين اهتمّوا بمجال الأخلاق، حيث رأى فيها جانبًا من الإبهام والتناقض. في تحليله لأصل الأخلاق، اعتبرها عائقًا أمام الحياة، ودعا إلى منظومة أخلاقية جديدة تتماشى مع روح العصر. ويبرز كتاباه جينالوجيا الأخلاق ونقيض المسيح كأهم الأعمال التي أظهر فيها عبقريته الفلسفية، حيث جمع بين الهدم والبناء في رؤيته النقدية العميقة للأخلاق.

أولاً : **ثورة العبيد على الأخلاق.**

يقدم نيتشه تحليلًا دقيقًا لنشأة الأخلاق من منظور الصراع بين طبقتين أساسيتين:

طبقة السادة (الأرستقراطيين) وطبقة العبيد، حيث يفرق بين أخلاق السادة التي تقوم على القوة والتأكيد الذاتي، وأخلاق العبيد التي تنشأ كرد فعل على قمعهم وعجزهم عن الفعل.

يرى نيتشه أن ثورة العبيد في الأخلاق تبدأ عندما يصبح الحقد، الذي يحمله الضعفاء (العبيد)، خلاقًا. فالعبيد غير قادرين على القيام بالفعل الحقيقي الذي يعبر عن قوتهم الذاتية، لأنهم مقيدون بالقهر والاستبعاد، مما يدفعهم إلى الانتقام في خيالهم بدلًا من الفعل في أرض الواقع العملي.

ونتيجةً لهذا، يصبح الحقد قوة خلاقة حين يتم إنتاج قيم أخلاقية جديدة تقوم أساسًا على رفض القيم الأرستقراطية. وبعبارة أوضح، فالضعفاء، بدلًا من أن يؤكدوا ذاتهم من خلال القوة، يقومون بإدانة الأقوياء واعتبارهم أشرارًا، وبالتالي يخلقون نظامًا أخلاقيًا جديدًا يقوم على الخير والشر بدلًا من القوة والضعف.

فإذا ما أمعنّا النظر في أخلاق السادة، وجدناها تنبع من شعورهم بالقوة والانتصار. فهم لا يحتاجون إلى مقارنة أنفسهم بالآخرين كي يحددوا قيمتهم، لأنهم يثبتون أنفسهم ببداهة وعفوية:

- القوي يرى نفسه خيّرًا، جميلًا، سعيدًا.
- قيمهم نابعة من إحساسهم بالحياة والشغف والفرح.
- لا يحتاجون إلى أعداء ليبرروا وجودهم، بل هم موجودون لأنفسهم.

وبمعنى آخر، القوي لا يعرف الحقد، بل يحتفل بوجوده ويعيش حياة مليئة بالقوة والحرية. وإذا أطلق حكمًا سلبيًا مثل: "سافل" أو "خبيث"، فهو يأتي متأخرًا وبعديًّا وليس هو الأساس في نظامه القيمي.

على عكس السادة (الأرستقراطيين)، أخلاق العبيد ليست تأكيدًا لذاتهم، بل نفيًا للآخرين. فهم لا يعرفون أنفسهم من خلال قوتهم، بل من خلال رفضهم لمن يضطهدهم. وهذا يجعل قيمتهم وجوهر أخلاقهم قائمًا على الحقد والنقمة. ومن خصائص أخلاق العبيد:

- الاعتماد على النظر إلى الخارج وليس إلى الذات.
- تقوم على رد الفعل، أي أنها تحتاج إلى عدو أو قمع خارجي لكي تتشكل.
- ترى القوي على أنه فاسد وشرير وظالم، ليس لأنه كذلك حقًا، بل فقط لأنهم بحاجة إلى خلق صورة سلبية عن السادة ليبرروا وجودهم الأخلاقي.

وعلى هذا الشكل، انتصرت أخلاق العبيد عبر الزمن لأنها قدمت نفسها على أنها الأخلاق الحقيقية المبنية على الخير والتواضع، بينما صوّرت أخلاق السادة على أنها شريرة وقاسية. وهكذا، ينتهي الأمر بالمجتمع بأن يتبنى قيم العبيد، مما يؤدي -وفقًا لينتشه- إلى

انحطاط الإنسانية وضعفها لأنها ترفض قيم القوة والإبداع لصالح قيم الضغينة والانكماش على الذات.

ثانياً : **نيتشه وسحر اللغة**

إن الأوهام اللغوية جعلت البشرية تؤمن بمفاهيم زائفة مثل «الفاعل المحايد» و«حرية الاختيار الأخلاقية»، في حين أن هذه مجرد أوهام يبثها العقل، ويرى نيتشه أن الفكر البشري محكوم بسحر اللغة، لأن اللغة تجعلنا نؤمن بوجود كيانات ثابتة ومستقلة، مثل:

- الذرة «كشيء جوهري ثابت.»
- المطلق عند كانط «كحقيقة ثابتة خارج التجربة البشرية.»
- الفاعل الأخلاقي «ككائن حر يختار الخير أو الشر.»

لكن حقيقة الأمر أن هذه الأفكار ليست إلا إسقاطات عقلية لا تعكس الواقع الفعلي. فكما اكتشف العلم أن الذرة ليست جوهرًا ثابتًا، فكذلك ليس هناك «فاعل» حر مستقل عن أفعاله، إذ يرى نيتشه أن الأخلاق التقليدية مبنية على هذا الوهم؛ فنحن نعتقد أن الإنسان يختار أن يكون خيّرًا أو شريرًا، لكن في الحقيقة، الخير والشر ليسا نتيجة إرادة حرة، بل يعكسان طبيعة الإنسان وقوته أو ضعفه، ولكي تتضح الفكرة أكثر، سأقدم مثالًا بسيطًا:

عندما نقول: «زيد تصـــرف بشـــجاعة»، فنحن نفترض أن الشـــجاعة جاءت من داخل زيد، كأنه كائن حر مســـتقل اختار هذا التصرف. أو عندما نقول: «زيد ارتكب جريمة، إذن هو شرير»، فنحن هنا نفترض أن الفعل يعكس جوهرًا داخليًا عند زيد.

هذا التفكير يجعلنا نفصل بين الشخص وأفعاله، وكأن الشخص كيان محايد يمكنه أن يكون قويًا أو ضـــعيفًا، خيرًا أو شـــريرًا، فقط بناءً على اختياره الحر. لكن نيتشـــه يرفض هذا التصـــور رفضًـــا قاطعًا؛ إذ يرى أن الفصل بين الفاعل وفعله مجرد وهم لغوي، لأن: الشخص ليس كيانًا محايدًا يمكنه اختيار أن يكون قويًا أو ضـــعيفًا، بل هو مجموع أفعاله.

ليس هناك «فاعل» خلف الفعل، بل «الفعل نفسه هو الحقيقة.»، يقدم نيتشه مثال الصاعقة لتوضيح طرحه:

العامة يعتقدون أن هناك "صـــاعقة" ككائن مســـتقل، وأن البرق مجرد أثر لها. لكن في الحقيقة، البرق ليس نتيجة الصـــاعقة، بل هو الصـــاعقة نفســـها، وبنفس الطريقة، البشـــر يقعون في وهم لغوي حين يفترضـــون أن هناك «فاعلًا» يقرر الفعل، بينما في الحقيقة، «الفعل نفسه هو الشيء الوحيد الموجود.»

لِنرى الآن كيف يستغل الضعفاء هذا الوهم؟ فبحسب نيتشه، فإن الضعفاء بحاجة إلى الإيمان بوجود «فاعل محايد» لأن ذلك يساعدهم على تبرير ضعفهم، فهم يقولون: «نحن لا نهاجم أحدًا لأننا صالحون، وليس لأننا ضعفاء.»، لكن نيتشه يقول: «أنتم لا تهاجمون لأنكم لا تستطيعون، وليس لأنكم اخترتم عدم الهجوم...!»

بعبارة أخرى، ضعفهم ليس اختيارًا أخلاقيًا، بل هو حقيقة وجودهم، لكنهم يستخدمون اللغة لتجميل ضعفهم وجعله يبدو كأنه فضيلة.

بناءً على ما سبق، لا وجود لفاعل منفصل عن الفعل؛ فالشخص هو أفعاله، وليس كيانًا محايدًا يختار بينها بحرية مطلقة. فالقوة ليست اختيارًا، بل طبيعة، تمامًا كما أن الضعف ليس اختيارًا، بل حتمية، الأخلاق التقليدية تخدعنا بجعلنا نؤمن أن الضعفاء اختاروا ضعفهم بدافع الفضيلة، بينما هم في الحقيقة ضعفاء لأنهم لا يملكون القوة.

ثالثاً : **الجذور الأولى لمفهومي العدل والعقاب**

إن مفهوم العدالة والعقاب وتصورنا الحديث لهما ليس سوى شكل متأخر ومهذب من أشكال أقدم وأبسط للعقاب والانتقام. إذن، هل

مفهوما العدالة والعقاب مرتبطان بالمسؤولية الأخلاقية، أم أن جذورهما تعود إلى مفاهيم أخرى؟

إن الإنسان أولًا كحيوان تطور عبر الزمن ليتمكن من التمييز بين مفاهيم مثل "العمد" و"الخطأ" و"الصدفة" و"المسؤولية". هذا يعني أن فكرة المسؤولية الأخلاقية ليست غريزية أو فطرية، بل تطورت تدريجيًا ضمن سياق اجتماعي معين، لكي يتمكن البشر من تنظيم حياتهم ومعاقبة بعضهم بناءً على مبررات معينة.

الفكرة السائدة اليوم عن العدالة، وهي أن المجرم يستحق العقاب لأنه «كان بإمكانه أن يفعل خلاف ما فعل»، ليست سوى شكل متأخر من أشكال الحكم على الأفعال، أي أن البشر لم يعاقبوا بعضهم في البداية بناءً على مفهوم «المسؤولية الأخلاقية»، بل كان العقاب ناتجًا عن الحاجة إلى التنفيس عن الغضب ورد الفعل على الضرر الذي وقع، ففي العصور البدائية، لم يكن الإنسان يعاقب الآخر لأنه «مسؤول» عن فعله، بل كان يعاقبه ببساطة لأنه ألحق ضررًا، تمامًا كما يفعل الأطفال عندما يضربون من أساء إليهم دون أي تحليل منطقي لمسؤوليته.

مع مرور الزمن، بدأ هذا العقاب يتحول إلى شكل آخر أكثر تنظيمًا، فلم يعد الهدف الأساسي للعقاب هو التنفيس عن الغضب فقط،

بل ظهر مفهوم «المعادلة والتعويض»، أي أن البشـر بدأوا يفكرون في إمكانية تعويض الضـرر بدلًا من الاقتصـاص المباشر. وهذا ما نجده في فكرة "الدية" أو التعويض المالي بدلًا من القتل أو العقاب الجسدي.

يرى نيتشـه أن هذه الفكرة الجوهرية، وهي أن الضـرر يجب أن يُعادله الألم أو التعويض، لم تأتِ من إحسـاس فطري بالعدل، بل نشـأت من العلاقات التجارية بين الدائن والمدين. في المجتمعات البدائية، عندما كان شـخص مدينًا لآخر ولم يسـتطع السـداد، كان يتم تعويض الدائن بطرق مختلفة، مثل أخذ ممتلكاته أو حتى إيذائه جسـديًا كتعويض. ومن هنا نشـأت فكرة أن كل ضـرر يحتاج إلى تعويض، وأن العقوبة ليسـت مجرد انتقام بل هي شكل من أشكال «التبادل الاقتصادي.»

يريد نيتشـه أن يقول إن ما نراه اليوم كـ«عدالة» مبنية على «المسـؤولية الأخلاقية» هو في الحقيقة امتداد لهذه العلاقة الاقتصـادية القديمة، لكنه أصـبح أكثر تجريدًا وتهذيبًا. ففي الماضـي مثلًا، لم يكن السـؤال هو: «هل هذا الشـخص مسـؤول أخلاقيًا؟» بل كان: «كيف يمكنني تعويض الضـرر الذي أصـابني؟» أما اليوم، فنحن نبرر العقاب بفكرة «حرية الإرادة» والمسـؤولية، لكن هذه الفكرة نفسـها هي مجرد تطور ثقافي وليست حقيقة مطلقة.

نتيجة لذلك، يقلب نيتشه الفكرة التقليدية للعدالة رأسًا على عقب، العدالة ليست مبنية على الأخلاق أو الإرادة الحرة، بل على تاريخ طويل من المعاملات الاقتصادية والعلاقات التعاقدية.

رابعاً : **نيتشه ضد التفسير الحديث لمفهوم العقاب**

يعرض نيتشـــه رؤيته النقدية للعقاب، فيميز بين عنصـــرين أساسيين فيه:

1. العنصــر الثابت: وهو الإجراء نفســه، أي الفعل المتمثل في العقاب كآلية تنفيذية محددة ودقيقة. يرى نيتشـــه أن هذا الإجراء أقدم بكثير من مفهوم العقاب ذاته، أي أن الأفعال المســـتخدمة اليوم كعقاب (مثل الســـجن، الجلد، القتل، الغرامات) كانت موجودة قبل أن تُستخدم لغرض العقاب.
2. العنصـــر المتغير: وهو معنى العقاب وهدفه، إذ يتغير عبر الزمن حسب السياق الاجتماعي والثقافي، فليس هناك معنى ثابت للعقاب، بل هو تراكم تاريخي لمعانٍ مختلفة يصـــعب تفكيكها أو ردها إلى أصل واحد.

من خلال هذين العنصـــرين، يبين نيتشـــه «أن العقاب ليس ممارســة وُجدت لغرض محدد مسـبقًا» مثل الردع أو تحقيق العدالة، بل

هو إجراء قديم استُخدم لأغراض مختلفة عبر العصور، وهكذا، يرفض نيتشه النظرة الساذجة التي ترى أن العقاب نشأ لغرض التأديب أو الإحساس بالذنب.

لقد خضع العقاب لتحولات كبيرة في معناه ووظيفته، إذ كان يُستخدم عبر التاريخ لأغراض متعددة، منها:

- الردع والوقاية من الجرائم.
- التعويض العاطفي للضحية.
- فرض النظام الاجتماعي.
- نشر الخوف بين الناس.
- استغلال المجرمين كعمال عبيد.
- تطهير المجتمع من العناصر غير المرغوبة.
- الاحتفال بهزيمة العدو.
- خلق «ذاكرة» لدى المجرم والمجتمع، أي التذكير بأن الجريمة تستوجب العقاب.

كما يشدد نيتشه على أن هذه الوظائف المتعددة للعقاب تراكمت مع الزمن، مما يجعل من المستحيل اليوم تحديد سبب واحد واضح للعقاب، فهل يؤدي العقاب إلى الشعور بالذنب؟

يرى نيتشـــه أن العقاب لا يؤدي إلى الشـــعور بالذنب، بل على العكس، قد يزيد من صلابة المجرم وقوته النفسية، مما يجعله أكثر تحديًا للمجتمع، فالسجون وسجون الأشغال الشاقة لا تولّد الإحساس بالندم، بل تعزز شـعور المحكوم عليه بأنه ضـحية للسـلطة، فالعقاب لم يكن يومًا وسيلة «لتربية الضـمير»، بل على العكس، كان - تاريخيًا – عائقًا أمام تطور الإحسـاس بالذنب، لأنه جعل الجاني يركز على الألم الجسـدي أو القهر الذي تعرض له، وليس على خطأ فعله، ولكن لماذا يعوق العقاب نشوء الإحساس بالذنب؟

بكل بسـاطة، لأن الإجراءات العقابية تخلق بيئة لا يسـتطيع فيها المجرم أن يدين نفســـه أخلاقيًا، «فهو يرى أن نفس الأفعال (الخداع، العنف، القتل، التعذيب) تمارسـها الدولة وأجهزة العدالة ضـد المجرمين دون أن تُعتبر جرائم.» ففي المجتمعـات القـديمـة، لم يكن يُنظر إلى المجرم على أنه «مذنب» بالمعنى الأخلاقي، بل مجرد فرد تســبب في ضـرر، وبالتالي كان العقاب مجرد رد فعل على الضـرر، وليس وسيلة لإصلاح الضمير.

ونتيجة لذلك، يمكننا أن نخلص إلى أن العقاب لم يكن أبدًا وسيلة طبيعية أو حتمية لخلق الإحســـاس بالذنب، بل هو نتاج عملية تاريخية معقدة، الفكرة التي يرفضـــها نيتشـــه هي أن العقاب نشـــأ كأداة لتربية

الضـمير، في حين أنه، في الواقع، مجرد إجراء قديم اسـتُخدم لأغراض متعددة، وليس له معنى جوهري ثابت.

خامساً : **نيتشه واسبينوزا: تفكيك وهم العقاب وتبكيت الضمير**

يناقش نيتشــه العلاقة بين العقاب وتبكيت الضــمير، معتمدًا على رؤية اســبينوزا، ليقدم تأويلًا نقديًا لمفهوم الإحســاس بالذنب والضــمير الأخلاقي في المجتمعات.

لقد أدرك اسبينوزا بطريقة «مخاتلة» -أي غير مباشرة أو غير مقصــودة تمامًا - «أن الشــعور بالذنب ليس حالة طبيعية متأصــلة في الإنســان، بل هو بناء تاريخي وثقافي.» لكن بعض مفســريه، مثل كونو فيشـر، أسـاؤوا فهم موقفه عن عمد، وذلك لأنهم لم يسـتطيعوا تقبل فكرة أن الأخلاق -بما في ذلك الشعور بالذنب- ليست حقائق مطلقة، بل مجرد تصورات بشرية نشأت عبر الزمن، ووفقًا لسبينوزا، فإن مفهومي الخير والشر ليسا حقائق موضوعية، بل مجرد أوهام من صنع الإنسان، فهو يرى أن الطبيعة والإله لا يعملان وفق مبدأ أخلاقي، كما يعتقد البعض، بل وفق قوانين ضــرورية خالية من أي غاية أخلاقية. ولذلك، فإن القول «بأن الله يتصـرف بدافع الخير» هو شـكل من أشـكال «التجديف»، لأن

ذلك يضـــع قيودًا على «حرية الإله، ويجعله خاضـــعًا لمفاهيم إنســـانية زائفة.»

عندما استرجع سبينوزا إحدى ذكرياته، تساءل عن معنى تبكيت الضمير، ليجد أنه ليس سوى «نقيض اللذة»، أي مجرد إحساس بالكآبة الناجم عن إدراك أن الفعل لم يحقق النتائج المتوقعة، ومن هنا، فإن الجناة في الماضـــي لم يكونوا يشـــعرون بالذنب وفق المفهوم الأخلاقي الحديث، بل فقط بالخيبة لأن فعلهم لم يؤدِّ إلى النتيجة المرجوة.

أما نيتشه، فيقارن بين موقف الجناة في المجتمعات القديمة وبين «القدرية الأمية» التي يصـــف بها الروس، إذ يرى أن الجناة كانوا يتقبلون العقاب بنفس الاستسلام الذي يقبل به الإنسان المرض أو الموت، أي دون ثورة داخلية أو إحســـاس بالذنب العميق، بل فقط كنوع من «الحظ الســـيئ!» وعلى العكس من ذلك، فقد طور الغرب نظرة أكثر تعقيدًا للعقاب، حيث أصـــبح العقاب يرتبط بتبكيت الضـــمير والشـــعور بالإثم، وهو ما لم يكن موجودًا عند الجناة الأوائل.

إن العقاب لا يجعل الإنســـان أكثر فضـــيلة أو أخلاقًا، بل يجعله أكثر حِرصًـــا وذكاءً في تجنُّب الأخطاء المســـتقبلية، فالعقاب يعزز وعي الفرد بضـــعفه، ويجعلهُ أكثر حيطة في تصـــرفاتهِ، لكنهُ لا يغير طبيعته

الأخلاقية، وهذا يعكس رؤية نيتشـــه بأن الأخلاق لا تُزرع بالقوة، بل تتشـكل عبر تجارب الإنسـان ونضـجه الذاتي، وهنا يطرح نيتشـه فكرة ثوريـة: العقـاب، رغم أنـه يعلّم الإنســـان كيف يكون أكثر عقلانيـة في أفعاله، إلّا أنه يجعله أيضًـا أكثر شـرًا، «فالتجارب العقابية القاسـية قد تدفع الإنســـان إلى تطوير حيلة أكبر في تجنب العقاب»، لكنها لا تغير طبيعته الأخلاقية نحو الأفضـــل، وبالتالي، فإن العقاب قد يعزز الدهاء والمكر أكثر مما يعزز الأخلاق.

بناءً على ما سبق، نجد أن هدف نيتشه هو تفكيك الفكرة السائدة بأن العقاب يؤدي إلى إصـلاح الإنسـان أخلاقيًا أو يجعله يشـعر بالذنب، بل يرى أن العقاب لا يولّد سوى الشعور بالخيبة، ولا يزرع في الإنسان إحساسًا أخلاقيًا حقيقيًا، بل يجعله أكثر حذرًا، وربما أكثر شرًا، كما ينتقد التصـور الأخلاقي التقليدي الذي يرى في العقاب وسـيلة لتقويم السـلوك، معتبرًا أن هذا الاعتقاد مجرد بناء تاريخي وليس حقيقة مطلقة.

سادساً : **نيتشه وتحولات الإنسان: من الغريزة إلى الصراع النفسي**

يقدِّم نيتشـه تفسـيرًا فلسـفيًا عميقًا لمسـار تحول الإنسـان من كائن غريزي، يعيش وفق حدســـه الطبيعي، إلى كائن معقد تتصـــارع داخله قوى متناقضة نشأت نتيجة التحولات الحضارية والقيمية.

في مرحلة ما قبل التاريخ، كان الإنسان أشبه بالحيوان، يعتمد على غرائزه في التجوال والمغامرة والصراع من أجل البقاء. لم يكن بحاجة إلى التفكير العميق، لأن غرائزه كانت توجهه دون خطأ، وكانت حياته تسير وفق نظام طبيعي لا يتطلب التأمل أو الحسابات العقلية المعقدة، لكن مع ظهور المجتمع والقوانين، وجد نفسه فجأة في وضع جديد، إذ لم يعد قادرًا على التصرف بحرية، وصار مضطرًا إلى كبح غرائزه والاعتماد على التفكير والاستنتاج، ويعبر نيتشه عن هذا التحول بقوله: «لقد أصبح يقتصر على وعيه [...] أي على أضعف أعضائه وأقلها مهارة»، هنا بدأ الإنسان يفقد توازنه الداخلي، إذ لم تَختفِ غرائزه، لكنها لم تعد تجد طريقها إلى الإشباع المباشر، فاضطرت إلى الالتفاف نحو الداخل، فيما يسميه نيتشه «استبطان الإنسان» أي أن الغرائز التي كانت تنطلق للخارج بحرية، باتت مكبوتة ومضغوطة داخل النفس، مما أدى إلى نشوء العالم الداخلي للإنسان، ذلك العالم الذي لم يكن له وجود يُذكر من قبل.

في البداية، لم يكن الإنسان البدائي بحاجة إلى كبت غرائزه، لكن مع فرض القوانين والعقوبات، بدأ يشعر بالإحباط والعجز، وصار يواجه قيودًا تمنعه من التصرف وفق طبيعته الأولى. وهكذا، تضخم عالمه الداخلي ونمت الحياة النفسية لديه بشكل غير مسبوق، حيث انقلبت

غرائزه المكبوتة ضـــده. ويعبر نيتشـــه عن هذه الفكرة قائلًا: «وهكذا انقلبت غرائز العداوة والقسـوة ولذة الاضـطهاد ضـد مالكها، وهذا هو أصـل الشـعور بالذنب»، أي أن الإنسـان، بعدما كان يوجه عنفه إلى الخارج، وجد نفسـه فجأة عاجزًا عن ذلك، فتحول هذا العنف نحو ذاته، فبدأ يجلد نفسه نفسيًا، وولد في داخله ذلك الإحساس بالذنب الذي لا يزال يطارده حتى اليوم.

الإنسـان الحديث، في نظر نيتشـه، هو «حيوان مدجّن» يعاني من الضـيق النفسـي لأنه فقد حريته الفطرية، إنه كائن مكبوت، محاصـر بقوانين المجتمع، يحاول التحرر لكنه يصـطدم بالسـلاسـل التي قُيّد بها حتى يكاد يجرح نفسـه في محاولاته اليائسـة، لقد كان في الأصـل كائنًا مغامرًا مفعمًا بالقوة، لكنه صـار يعيش في حالة من الحزن الدائم، يحنّ إلى الماضـي الذي كان فيه «سيد نفسه»، ويشعر أن حياته فقدت معناها الأصيل، ولكن نيتشه يرى في هذا الصراع الداخلي «وعدًا بالمستقبل»، وكأن الإنسـان الحالي ليس سـوى مرحلة انتقالية بين الحيوان والإنسـان الأعلى، وهو ما يجعله كائنًا غامضًـا ومعقدًا ومليئًا بالتناقضـات، «لقد تحولت الحياة الإنسـانية إلى مسـرحية درامية كبرى تحتاج إلى متفرجين ربانيين لمشـاهدة أحداثها، وكأن الكون نفسـه يترقب ما سـتؤول إليه هذه القصة.»

باختصـــار، يقدّم نيتشـــه تحليلًا جذريًا لأصـــل الشـــعور بالذنب والمعاناة النفسـية في الإنسـان الحديث، موضـحًا أن هذه المعاناة لم تكن موجودة حين كان الإنسان يعيش وفق غرائزه بحرية، لكنها نشأت عندما أجبرتـهُ القوانين والعقوبـات على كبتهـا، ممـا أدى إلى بروز النفس والوعي الذاتي، هذا الصراع المستمر بين الغرائز القديمة والقيم الجديدة هو ما يجعل الإنســـان يعاني، لكنه في الوقت ذاته يمنحه إمكانية أن يتحول إلى شيء أعظم.

سابعاً : **نيتشه: ولادة القيم من رحم القمع**

يعرض نيتشه رؤية فلسفية جريئة حول نشوء الدولة والشعور بالذنب، متجاوزًا التصـــورات التقليدية التي تفترض أن المجتمع المنظم وُجد نتيجة «عقد اجتماعي» بين الأفراد الذين توافقوا على قوانين لتنظيم حياتهم. على العكس من ذلك، يرى نيتشـــه أن الدولة لم تكن ثمرة اتفاق سلمي، بل وُلدت من رحم العنف والقوة، حيث ظهرت فجأة كسلطة غازية فرضت نفسها على جماعات غير منظمة.

يرى نيتشـه أن الدولة لم تنشـأ عبر تفاهم بين البشـر، بل جاءت نتيجة غزو قام به «عرق من الفاتحين"، جماعة من الســـباع الشُـــقر» الذين انقضّـــوا على الآخرين، ليس لأنهم اتفقوا معهم، بل لأنهم كانوا

الأقوى والأكثر تنظيمًا، هؤلاء الغزاة لم يلجؤوا إلى التفاوض أو الإقناع، بل فرضوا سيطرتهم بالقوة العسكرية. ولم يكن هذا الفعل مجرد وحشية، بل كان ضـربًا من "«الفن»، إذ أعاد الفاتحون تشـكيل المجتمعات التي غزوهـا وصـــاغوهـا وفقًـا لمنطقهم الخـاص، أمـا هؤلاء «المنظمون بالفطرة»، فإنهم لا يعرفون معنى الخطأ أو المسـؤولية كما يفهمها الناس اليوم، لأنهم يعملون وفق إرادتهم المطلقة، «إنهم لا يشعرون بالذنب، بل يرون أنفسهم خالقين لعالم جديد»، تمامًا كما لا يشعر الفنان بالذنب تجاه المواد التي يعيد تشـكيلها وفق رؤيته، لكن بعد أن ينجح «فنانو العنف» في إنشـــاء الدولة، تبدأ القوانين في فرض نفســـها على الأفراد، فتُقيّد الغرائز التي كانت تُمارس بحرية في الســابق، «غير أن هذه الغرائز لا تختفي، بل تتحول إلى الداخل، حيث تبدأ النفس في قمع ذاتها، فينشـــأ الشـعور بالذنب.» وهكذا، «فإن الشـعور بالذنب ليس سـمة أصـيلة في الإنســان، بل هو نتيجة مباشـرة للقمع الاجتماعي.» فحين كان الإنســان حرًا، لم يكن مضـطرًا إلى كبت غرائزه أو الشـعور بالذنب بسـببها، أما بعد نشوء الدولة والقوانين، فقد بات مضطرًا إلى قمع نفسه، مما ولّد هذا الإحساس العميق بالذنب.

وهكذا، كما كان «فنانو العنف» يشـــكّلون الدول والمجتمعات، أصـــبح الإنســـان المكبوت فنانًا من نوع آخر، يُمارس «فن العذاب

الذاتي»، حيث يعيد تشـكيل ذاته في عملية مسـتمرة من القمع الداخلي، «هذه العملية القاسـية ولّدت القيم الأخلاقية الجديدة مثل التواضـع والتضـحية والندم، التي لم تكن موجودة في العصـور البدائية»، لكن نيتشـه لا يرى في الشـعور بالذنب مجرد إحسـاس سـلبي، بل «يعتبره المحرك لظهور مفاهيم الجمال والسـمو الأخلاقي.» فالإنسـان الذي بدأ في قمع نفسه وتشكيل ذاته، كان يسعى إلى التعويض عن معاناته بإنتاج أشكال جديدة من الجمال والقيم، ولو لم يكن هناك قمع داخلي، لما نشأت فكرة «الجمال»، لأن الجمال يتحدد في جزء كبير منه عبر الصـراع والتناقض.

يقول نيتشـه: «القبح يقول لنفسـه: أنا قبيح»، بهذه العبارة يشـير إلى أن إدراك الإنسـان لقبحه الداخلي كان بداية نشـوء مفهوم الجمال، إذ إن التناقضـات هي التي تخلق الوعي الجمالي، فلو لم يكن هناك صـراع داخلي بين الغرائز والقيم، لمـا كـان هنـاك دافع للبحـث عن الجمـال أو الأخلاق أو السمو الروحي.

باختصار، يريد نيتشه أن يحررنا من الوهم بأن الدولة والمجتمع الأخلاقي نشآ بشكل سلمي أو طبيعي، بل يؤكد أن كل شيء بدأ بالعنف، وأن القيم والمُثل التي نؤمن بها اليوم ليست سوى نتاج صراع طويل بين القمع والحرية.

ثامناً : **نيتشه بين كانط وشوبنهاور: نقد فلسفي لمفهوم الجمال**

يوجه نيتشـــه انتقادًا حادًا لكل من كانط وشـــوبنهاور في تصوراتهما حول الجمال والفن، محاولًا الكشف عن الأخطاء المنهجية والفكرية في تفسيرهما لهذه الظاهرة.

«يرى كانط أن الجمال يتميز بالموضـوعية والعالمية»، أي أنه ليس مجرد إحساس شخصي، بل يحمل صفات تجعله مقبولًا على نحو عام. كما عرّف الجمال بأنه «ما يعجبك دون أن يثيرك»، أي أن الجمال، في نظره، لا يرتبط بالرغبة أو الشهوة. غير أن نيتشه يرى في هذا التعريف موقفًا «مشـــاهدًا» وليس موقفًا «مبدعًا»، أي أنه نابع من تجربة شـخص يراقب الجمال من الخارج، دون أن يكون فنانا أو مبدعا حقيقيا، ويعتبر أن كانط لم يعتمد على تجربة جمالية حقيقية، بل قدم مفهومًا مجردًا، خاليا من التفاعل الحسي والعاطفي الذي يرافق الجمال.

يقارن نيتشه تعريف كانط للجمال بتعريف ستندال، الذي اعتبر الجمال «وعدًا بالســـعادة»، ويرى أن تعريف ســـتندال أكثر واقعية وحيوية؛ لأنه يربط الجمال بالرغبة والانفعال، على عكس تعريف كانط الجاف. كما يســـخر من التصـــور الكانطي قائلًا «إن الجماليين (أي الفلاسـفة الذين يتبنون موقف كانط) إذا حاولوا إثبات أن الإنســان يمكنه

التفاعل مع الجمال دون أن يحرك فيه أي مشـــاعر أو رغبات، فإنهم سيكونون مثيرين للسخرية».

أما شـــوبنهاور، فعلى عكس كانط، كان له اهتمام حقيقي بالفن والجمال، لكنه رأى في الجمال وسـيلةً للتحرر من الإرادة والرغبات، إذ يمنح الإنسـان فرصـة للهروب من المعاناة الناتجة عن الحياة، فهو يرى أن العالم يتكون من إرادة «قوة عمياء تحرك كل شيء» وتمثُّل «صورة الأشياء كما يدركها وعينا».

لكن نيتشـه يرى أن شـوبنهاور وقع في الخطأ ذاته الذي وقع فيه كانط، لكنه أضـــاف إليه بعدًا زُهديًا. فبدلا من اعتبار الجمال جزءًا من الحياة وقوةً إيجابية، جعله وسـيلةً للخلاص من الإرادة والرغبة، أي أنه حوّلـهُ إلى أداة للهروب من الواقع بـدلا من أن يكون تعبيرا عن القوة والحياة، كما يرى أن فكرة «التخلص من الإرادة عبر التمثل» ليســت سوى تعميم لتجربة نفسية وجنسية، أي أن شوبنهاور لم يصل إلى هذه الفكرة عبر تأمل فلسفي ناضج، بل تأثر بخبراته الشخصية المبكرة، من كبت جنسـي وصـراع مع الرغبة. ففلسـفته، حسـب نيتشـه، ليست سـوى انعكاس لمشـاعر شـاب في السـادسـة والعشـرين، وليست نظرية ناضـجة مبنية على تأمل عميق في الحياة والفن، إلى جانب ذلك، يؤكد نيتشــه أن

وصف شوبنهاور للجمال بأنه «وسيلة للراحة من الإرادة» يعكس رؤية مرضية ومعاناة نفسية أكثر من كونه تحليلا فلسفيا موضوعيا.

في النهاية، يريد نيتشـــه أن يقول إن الفلاســـفة الذين يفصـــلون الجمال عن الرغبة والحياة يســـلبونه قوته الحقيقية، فالجمال، عنده، ليس مجرد فكرة مجردة ولا أداة زهدية، بل هو جزء من إرادة الحياة ذاتها، وهو ما يجعل فلسفته مختلفة عن كل من كانط وشوبنهاور.

* * *

« النـادِلـة » *قصة*

إن الساعة السادسة صباحاً، نعم، إنها ساعة استيقاظ الفقراء من سباتهم المختصر، لكن الأمر مختلف تماماً مع النادلة المسكينة، مختلف إلى حدّ لا تدركه أعين المارّة. الفتاة عائدة لتوّها إلى البيت، وقد انهكتها الســـاعات الطويلة، عائدة تحمل وجهها الشـــرود الشـــاحب كما يحمل البستانيُّ فأسه عائداً من مزرعة سيّدِهِ منهك القوى، إن المرء يدرك مدى تدهور الحالة النفســـية للفتاة بمجرد النظر إلى عينيها الحزينة ،نعم، هذا الحزن الذي بلغ ذروته حين يصـــبح ثقيلا بما يكفي لتنام المســـكينة وهي

تتمنى ألا تســـتيقظ. تعمل الفتاة في مقهى بمارتيل، لدى رجل يُدعى "مصــطفى"، الســيد الطيب الذي يبلغ من العمر نحو ثلاثين عاماً، يدير المقهى الذي يخاله المرء إرثاً من والده. المختار رجل متوسّـــط القامة، تبدو صـــحته جيدة عند النظرة الأولى، لكنه يظل لغزاً، طيباً بظاهره، لكنه ســيدٌ في لعبة الحياة التي يضــع لها قوانينه، فهو من منح هذه الفتاة عملاً في المقهى، عطفاً منه عليها، فتاة لطيفة وفقيرة لا تملك سوى جسد نحيل كقصـــيدةٍ بلا كلمات وكغيمة بلا مطر .تبدو بروحها أكثر مما هي بجســـدها، لدرجة أني أخالها روحاً بلا جســـد. وحينما أمعن النظر في ملامحها يلبسـني شـعور بالدهشـة والانزعاج، كأنّي أرى شـيئاً يتوارى خلف ابتســـامتها الرقيقة، عالماً خفياً لا يراه ســـواي. وجهها يحمل بين طياته علامات الحزن المضــمر، آهٍ، نعم، إنها هي، تلك الجروح التي لا ترى بالعين المجردة، مرض نفســـي قديم تختبئ آثاره خلف تظاهرها بالابتسامة، آهٍ، يلا المسكينة الضعيفة!

تبتسـم النادلة، وتشـارك الزبائن في ترهاتهم، ضـحكاتهم التي لا تحمل معنى. ليس لأنها راغبة في ذلك، بل لأن فقدان الابتســـامة يعني فقدان العمل، وفقدان العمل يعني انقطاع سبل الحياة. مصطفى يطلب من نادلاته أن يبتسـمن دائماً، كما يطلب الرأسـمالي من العامل أن ينتج دون توقف، والزبائن؟ لا أحد منهم يعلم بما يحدث في هذا العالم الخفي. لا

أحد يرى كيف تذوب الابتسامة على وجه النادلة كالجليد تحت الشمس، وكيف يحفر الحزن أخاديده العميقة بصمت. لكل منهم حياته، وكلهم يجهلون أن هناك عالماً ينهار في قلب هذه الفتاة، عالماً يشق طريقه إلى السطح من خلال نظراتها الشاردة، عبر تجاعيد وجهها الصامت.

ها هي الفتاة تعود إلى منزلها، الساعة تشير إلى السادسة والنصف. في هذا الصباح الشتائي البارد من شهر يناير، تمرّ مسرعة عبر ممر الراجلين، والعالم من حولها يغطّ في صمتٍ ثقيل. الظلام يغمر الشوارع الفارغة، والبرد يتسلل إلى عظامها. تمشي بخطى متسارعة، والخوف يملأ قلبها، كأنما هو ظلها الذي يطاردها في كل خطوة. إنها تدرك تماماً مدى التدهور الأخلاقي الذي يحيط بها، وتشعر بأن شيئاً ما قد يحدث، لا تعلم ما هو، لكنها تخشى أن تلتقي بأحد المتطفلين السكارى، وهي بالكاد تقوى على السير، فجأة، إحساس غريب يتملكها. تهمس لنفسها بصوت خافت، "آه، أشعر أن أحدهم سيزعجني اليوم". ثم تتوقف للحظة، تعيد التفكير، "لا، هذا مجرد غباء... هذا غب..."، ولكنها لم تكمل لفظتها. توقفت، وشهقت. أمامها، أحد المتطفلين يقف على حائط متسخ، يغمره بقايا البول والأزبال. إنه مأوى السكارى، إن صح التعبير. الآن هي على بعد أمتار قليلة منه. رأت هذا الشاب يمسك بزجاجة بيرة، يحتسيها ببطء. في تلك اللحظة، بدأ جسدها يرتجف،

وشفتاها ترتعشان. أصبح وجهها شاحباً كما لو أن الحياة فرت منه، كل ما تمنت حينها هو أن تبتلعها الأرض قبل أن يزعجها هذا السكير.

لكن فجأة، بصوت مبحوح يملأه الألم، بدأ السكير يغني أغنية رومانسية من الطراز التركي، بصوت عالٍ ومرتعش. رافعاً رأسه نحو نافذة لا يزيح بصره عنها. في تلك اللحظة، هدأ قلب الفتاة. أدركت سبب سكر الشاب، وفهمت أن ما تراه ليس تهديداً. لقد تخيلت، أو ربما رأت في عينيه، قصة حزينة. هذا الشاب، كما استنتجت، قد هجرته حبيبته. وهو الآن يقف أمام منزلها، يغني لها الأغنية التي كانا يتشاركانها، يذكرها بأن الحب لا يزال مشتعلاً في قلبه، رغم كل الألم. إنَّ شعوراً غريباً بدأ يمزق الفتاة في تلك اللحظة. توقفت في مكانها عندما سمعت الشاب يغني، مرسخاً نظره نحو النافذة، وجسده كأنه ليس هنا. راحت تتأمله بعينين تشفقان، ترى في وجهه الشاحب ملامح من انكسار لا تخطئه العين. إنه شابٌ يثير الشفقة، جسد فارغ من الروح إلا من هذا الأمل المتشبث بخيط وهمي.

تقدمت الفتاة بخطوات مترددة نحو الشاب، وهي لا تزال تحدق فيه كما لو أنها تحاول أن تفهم قصته، أن تقرأ في قسمات وجهه حكاية عجزت الكلمات عن وصفها. لكنها سرعان ما خفضت بصرها نحو

الأرض عندما اقتربت منه، ليس خوفاً، وإنما تعاطفاً مع قلبه المكسور. مرت أمامه ولم يُلقِ بالاً لوجودها، كأن العالم بأسره اختزل في تلك النافذة. إنه لا يرى إلا تلك النافذة، عيناه معلقتان بأملٍ بائس أن تعطف عليه حبيبته يوماً، أن تظهر من وراء الزجاج وتنظر إليه بنظرة تخفف عنه عبء الحب المرهق الذي يحمله. آه، ما الذي فعله هذا المسكين ليصبح عبداً لحب فتاة لا تبادله الشعور نفسه؟ هذه الفكرة ظلت تتردد في ذهن الفتاة وهي تمضي بعيداً، لكنها لم تستطع المغادرة كلياً. توقفت خلف حائط آخر، ملوث بالأوساخ ككل شيء حولها، وألقت نظرة أخيرة على الشاب. كانت تراقبه بصمت، واضعة يديها على رأسها كما لو أن الألم الذي يعانيه الشاب تسرب إليها.

وقف الحزن ثقيلاً في قلبها، جعلها تتمتم بكلمات من قصيدة محمود درويش: "يقول المُحب المجرّبُ في سرهِ هو الحب كِذبتنا الصادقَة!" هذه الكلمات التي همست بها الفتاة، بدت كمرآة تعكس ما يعانيه الشاب، ما يحس به وما لم يتمكن بعد من استيعابه. إنه الحب، تلك الكذبة الجميلة التي نعيشها برغم كل الألم.

سئمت الفتاة من هذا المشهد الذي ضاعف من ثقل تعبها، فتابعت سيرها نحو منزلها. الساعة الآن تقترب من السابعة صباحًا، لكن الظلام

لا يزال يلف الأزقة، والشـوارع خالية إلا من بعض عمال النظافة الذين يجمعون نفايات المدينـة في هذا الوقت المبكر، حتى ننهض نحن لنجد الشوارع نظيفة. آه، من مفارقات الحياة!

إن الفتاة منهكة للغاية بعد ليلة طويلة من العمل في المقهى، وقد أثقلها المشـــهد الذي رأته للتو، حيث اختلط عطفها مع حزنها على حال الشاب، لتشعر بتعب لا يطاق وحزن يسكن قلبها المنهك.

وأخيراً وصـلت الفتاة المسكينة إلى بيتها، منهكة القوى، شـاردة الذهن، وقد أثقل الحزن روحها مما رأته في طريقها. كانت غرفتها عبارة عن مسـاحة ضـيقة في الطابق الثاني من منزل قديم، ملكٌ لسـيدة عاشـت في زمن بعيد حينما كان زوجها ذو نفوذ، قبل أن يطويه الموت. الغرفة تكاد تكون أشـبه بجحر، صـغيرة ومظلمة، يملأها الغبار والهواء البارد المتسـلل من النوافذ المهترئة، وكأن الحياة قد نسيت طريقها إليها. في زوايا الغرفة، تلعب بعض الفئران فوق سـريرٍ مهترئ، كأنها وحدها من يشـعر بالراحة وسـط هذا الفضـاء الكئيب. السـقف المنخفض بالكاد يسمح لشـخص طويل أن يقف فيه منتصـباً، وكأن كل شـيء هنا يضـغط عليها، حتى الجدران التي تبدو وكأنها تنحني عليها بحمل ثقيل لا يطاق. آه، ما أقسـى الحياة تحت هذه الأسـقف الواطئة، وما أصـعب العيش مع

الأحزان في مكان لا يتسع حتى لهموم القلب. كانت الفتاة جائعة بشدة، فلم تذق شيئاً طوال الليل الذي قضته في العمل. كانت تتمنى لو بإمكانها الخروج لتجلب بعض الطعام، لكن حتى إن وجدت وقتاً، ما تجنيه من عملها لا يكفي لسد جوعها في الخارج، فأسعار الطعام في المطاعم تفوق قدرتها المالية. بالكاد تستطيع الفتاة أن تعيش مما تحصل عليه من العمل الشاق.

أرادت أن تعد شيئًا سريعاً لتأكل، واختارت البيض المقلي لسرعته، لكن ما أن فتحت عينيها نحو المطبخ الصغير حتى اكتشفت أن الفئران قد عبثت بكل شيء. الفئران أسقطت البيض من على الدكة الخشبية، فأصبح البيض متناثراً على الأرض، مفسداً آخر ما تملك من طعام. كم كان حظها سيئًا، وكأن الحياة لم تشأ أن تمنحها حتى فرصة بسيطة للتخفيف من ألمها. وفي هذه اللحظة أحست الفتاة بغضب جارف، لم تجد ملاذاً إلا أن تحتضن ركبتيها، واضعة رأسها بين يديها، وانفجرت في بكاءٍ مرير. صوت نشيجها ارتفع في الغرفة الصغيرة، حتى ليخال المرء أنه يصدح عبر جدران الطوابق العلوية. دموعها تساقطت بغزارة، وقلبها ينبض بعنف، كأن نبضاته تسابق الزمن لتتوقف فجأة تحت وطأة الألم.

إن غرفتها الآن تحولت إلى مســـرح للذكريات؛ كل حائط فيها يحمل بين طياته قصـة من قصـص معاناتها. نهضـت الفتاة ببطء، متجهة نحو النـافذة الوحيدة في الغرفـة، وأطلت عبر الزجـاج المتســـخ، حيث استأنفت بكاءها. لكن هذه المرة، كانت الدموع تحمل معها عبء سنوات من الذكريات المؤلمة. تذكرت طفولتها، حينما كانت أحلامها تنمو إلى جانب والديها المتواضعين، وكيف قُطعت تلك الأحلام بعد فراق والديها. كنت قد ســـمعت بعض الأحاديث في المقهى عن والدها؛ قيل إنه توفي عندما كانت لا تزال طفلة لم تتجاوز العاشـــرة. كان والدها، كما تقول الروايات، رجلاً ســـكيراً فاســـقاً، مهملًا لابنته وزوجته، همه الوحيد أن يجمع بعض المال لشـراء الخمر. حتى أنه كان يرغم زوجته وابنته على العمل في المنازل، فقط ليتمكن من الاســـتمرار في احتســـاء الخمر، ما الفائدة من مثل هؤلاء الآباء؟" "من الأفضـــل أن يموتوا، هؤلاء الذين لا يمنحون أبناءهم سكينةً ولا رحمة. أما عن أمها، فقد غاب كل أثر لها. لا أعرف إن كانت لا تزال على قيد الحياة أم أن القدر أخذها بعيداً. فكل هذا أجهله جهلاً تماً، كل ما أعرف هو أن أمّها لا تعيش معها في هذا المنزل،

وبعد أن اجتاحت الحسرات ونشيجها قلبها ساعة كاملة، قررت المسـكينة أن تمنح نفسـها قسـطًا من الراحة. فسـرعان ما اسـتقرت على

سـريرها، وأسـلمت جسـدها للتعب، نامت نوماً عميقاً لا يحظى به الأغنياء، الذين لا يعرفون عن مشقة العمل ولا يذوقون طعم السهر. كان نومها هذا غريباً، غرابةً لا تكاد تُصـدَّق؛ إنها نائمة بثياب عملها المتسخة، ولكن ما الفائدة من نظافة ملابسها إذا كان السرير أكثر اتسخا من ثيابها! نعم، نعم، هذا غباء مني فحسب، نعم إنه كذلك.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت المسكينة منهكة القوى، وكان السعال العنيف يعتصر صدرها. لا شك أن الدخان المتصاعد من حيث تعمل في المقهى قد ترك أثره عليها، وأدى بها إلى هذا المرض، ربَّاهُ، كم هو مؤلم أن تكون ضحية لقمة العيش! إن سعالها القوي يثير الشكوك، وكأن القلب الذي يراودها على البوح يتوق إلى الخروج إذا استمر الحال هكذا، آهٍ ما أشقَّ لقمة العيش! الفتاة تعاني من سعالٍ شديد، وأخشى أنها لن تسـتطيع مغادرة المنزل لتذهب إلى العمل. إنها في حالة مرضـية حرجة، وتحتاج إلى من يهتم بها ويرعاها. وحتى النقود التي ستشتري بها الدواء لا توجد، فسـيّد المحترم "المُختار" لم يدفع لها بعد، إذ أن موعد استلام الراتب متفق عليه في آخر الشهر، يا للمسكينة الضعيفة، من سيعتني بها الآن؟ إنها لا تقوى على مفارقة سريرها. آه.. آ..

الإنسان بين قسوة الواقع وعبثية الوجود

خديجة زكري: *كاتبة مغربية من مواليد 2003 بمدينة أكادير.*

في الشـــوارع المكتظة بالحركة، حيث يتدافع البشـــر كأنهم في ســـباقٍ أبدي، كان يمشـــي وحيدًا رغم الزحام. وجوه العابرين تبدو متشـــابهة، عيونهم غارقة في دوامة الحياة، تســـيرهم الحاجة أكثر مما يحركهم الاختيار. أصوات الباعة، ضجيج المحركات، هتافات الأطفال، كلها ضوضاء تتلاشى في الخلفية، كأنها لا تعنيه. لم يكن جزءًا من هذا العالم، بل كان مجرد عابرٍ ينظر إليه من وراء زجاجٍ شـــفاف، يراقب المسرحية الكبرى التي يؤديها الجميع بحرفية، لكنه عاجز عن التصفيق أو المشاركة.

هل هذه حياة، أم عقوبة مغلّفة بوهم الحرية؟ هل الإنســـان كائنٌ مختار، أم مســـجونٌ داخل قفصٍ لا يرى قضـــبانه؟ يولد في مكانٍ لم يختره، يحمل اســـمًا لا يعنيه، يُلقَّن أفكارًا لم يســـأل عنها، ثم يُطالب بأن يصنع مصيره بنفسه، كأن الأقدار لم تُحبك مسبقًا! أي مفارقةٍ هذه التي تجعل الإنسان يلهث طوال حياته وراء سراب، يحاول إقناع نفسه بأنه

يمســـك بزمام الأمور، بينما هو في الحقيقة مُسَـــيَّرٌ في متاهة رســـمها آخرون؟

تتكرر الحياة نفســـها كل يوم، لكنها تأخذ أشـــكالًا مختلفة. ذلك الرجل الذي يركض ليلًا ونهارًا ليجمع ما يكفي لإعالة أسرته، كأن الفقر لعنةٌ كُتبت عليه منذ الأزل. تلك المرأة التي تحمل فوق كتفيها همَّ البيت والعمل والمجتمع، ثم تُطالَب بأن تبتســـم لأنها "محظوظة" بحياتها. ذلك الشـاب الذي عاش عمره يحلم بفرصـة، وحين ظن أنه بلغها، أدرك أنها مجرد قيدٍ جديد يُضاف إلى سلاسله.

في عالمٍ يُباع فيه الإنســـان قطعةً قطعة، حيث تُشـــترى الأحلام وتُباع الأوهام، كيف للمرء أن يعيش دون أن يفقد نفســـه؟ كيف يحافظ على إنسانيته في عالمٍ احترف سحق الأرواح؟ كيف يواجه قسوة الواقع وهو يعلم أن العبث هو سيد اللعبة؟

هذا المقال ليس مجرد تســـاؤلات في الفراغ، بل هو محاولة لالتقاط بعض شـظايا الحقيقة وسـط هذا الخراب. في رحلة البحث عن المعنى، سـنواجه القسـوة التي تلتهم النفوس، سـنسـير في متاهة العبث حيث لا مكان للمنطق، وسنقف أمام المرآة لنسأل أنفسنا: هل نعيش لأن الحياة تستحق، أم لأننا لم نجد خيارًا آخر؟

يمشي في شارع مكتظ بالحياة، لكنه لم يكن جزءًا منها. أصوات الباعة، ضجيج السيارات، صخب المارة... كلها ضوضاء بعيدة، كأنها تحدث في عالم آخر لا ينتمي إليه. بدا الشارع وكأنه مسرح ضخم، الجميع فيه ممثلون بارعون، يلعبون أدوارهم بإتقان، بينما هو مجرد متفرج فقد تذكرته، عالق في مشهد لم يكتبه، ولم يختر حتى أن يكون فيه.

ما الإنسان إلا كائن مسحوق بين قوتين لا ترحمان: الحاجة والسلطة. الحاجة التي تجبره على أن يتحمل كل أشكال الذل من أجل البقاء، والسلطة التي تفرض عليه القوانين، لا لتوفر له حياة كريمة، بل لتضمن استمرار اللعبة كما هي. إنسان العصر الحديث ليس سوى ترس في آلة عملاقة، يدور ويدور حتى يتهالك، ثم يُستبدل بغيره، دون أن يتوقف شيء.

انظر إلى المدن المكتظة بالملايين، إلى الأجساد التي تسير كأنها بلا أرواح، إلى العيون التي أطفأها الإرهاق. تجد الرجل الذي يعمل 12 ساعة يوميًا ليحصل على راتب بالكاد يكفيه، والمرأة التي تتحمل أعباء لا تنتهي لأنها وُلدت في مجتمع يعتبرها أقل قيمة، والشاب الذي يدفن أحلامه كل صباح لأنه لا يملك رفاهية الحلم.

في فيلم The Pursuit of Happyness، نرى شخصية "كريس غاردنر"، الرجل الذي يحاول النجاة من الفقر المدقع. ينام في المراحيض العامة، يركض من وظيفة إلى أخرى، ومع ذلك، لا أحد يبالي. المجتمع لا يكترث لمأساة فرد واحد، لأنه ببساطة يرى هذه المأساة يوميًا، حتى أصبحت أمرًا عاديًا. في الحقيقة، مأساة كريس غاردنر تتكرر كل يوم في مدننا وشوارعنا، لكنها لا تنتهي بنفس النهاية السينمائية السعيدة، بل تستمر في الدوران داخل دائرة الفقر واليأس.

إن هذا الواقع القاسي ليس مجرد خطأ عابر في النظام، بل هو النظام نفسه. فكما في رواية 1984 لجورج أورويل، حيث السلطة تحكم عبر القمع والخداع، نجد اليوم أن المجتمعات الحديثة تحكم عبر "الإجبار الناعم". الوظائف، القروض، الالتزامات الاجتماعية... كلها سلاسل غير مرئية، تجعل الإنسان يعتقد أنه حر، بينما هو في الحقيقة مقيد حتى النخاع.

حين يفتح الإنسان عينيه على هذا العالم، يجد نفسه في دوامة لا يعرف كيف بدأها، ولا كيف سيخرج منها. يولد في وطن لم يختره، يتعلم لغة لم يخترها، يُفرض عليه دين، يُقال له ما هو الصواب وما هو الخطأ، ثم يطلبون منه أن "يعيش حياته كما يريد". كيف يكون حُرًا وهو لم يختر أي شيء من البداية؟

في مسـرحية في انتظار غودو لصـمويل بيكيت، يقف البطلان على المسرح، ينتظران شخصًا لن يأتي أبدًا، ومع ذلك يستمر الانتظار. أليس هذا حال الإنسـان اليوم؟ يركض طوال حياته نحو هدف ما، وظيفة مرموقة، زواج سعيد، حياة أفضل، لكنه حين يصل، يدرك أن لا شيء تغيّر، وأن الانتظار كان بلا جدوى.

نحن نعيش في عالم يشـبه قصـة سـيزيف، ذاك الرجل الذي حكمت عليه الآلهة بأن يدفع صـخرة ضـخمة إلى قمة الجبل، فقط لتتدحرج مجددًا، ويعيد الكرة إلى الأبد. ألا يشبه هذا حياتنا؟ نستيقظ كل صـباح، نذهب إلى العمل، نواجه المشـاكل ذاتها، ثم ننام لنكرر المشـهد في اليوم التالي، وكأننا عالقون في حلقة لا نهاية لها.

حين يصبح الحلم ترفًا

في المجتمعات المترفة، الأحلام مشروعة. يمكن للمرء أن يحلم بأن يصبح كاتبًا أو فنانًا أو رائد فضاء، لكن في مجتمعاتنا، الحلم نفسه رفاهية. من يجرؤ على أن يحلم وسط هذه القسوة؟ من يستطيع أن يفكر في الفن أو الفلسفة وهو لا يجد ما يأكله؟

انظر إلى آلاف الشـباب الذين يرمون بأنفسـهم في البحر، بحثًا عن حياة كريمة في بلاد أخرى. أليس هذا دليلًا على أن الأمل قد نفد؟

متى أصـــبح الوطن ســـجنًا، حتى صـــار الموت في عرض البحر أكثر رحمة من البقاء فيه؟

في فيلم Joker، نرى شـــخصـــية "آرثر فليك"، الرجل الذي حطمته الحياة، حتى صـار مجرد ظل لإنسـان. كان يحاول أن يبتسم، أن يندمج، لكن العالم لم يترك له خيارًا. في النهاية، انفجر غضـــبه، وأطلق فوضـى عارمة، لا لأنه كان شريرًا، بل لأنه تعب من أن يكون الضحية. كم من شـخص يشـبه "آرثر" في عالمنا؟ كم من روح انهارت تحت ثقل القهر والتجاهل؟

يقول ألبير كامو: "العبث يولد عندما نصطدم بين رغبتنا في فهم العالم وصـمت العالم تجاهنا." هذا الصـمت هو ما يجعل الإنسـان يتمزق بين الإيمـان والعبث. البعض يختـار الإيمـان، ليس لأنـه وجده، بل لأنـه يحتـاجـه ليســـتمر. والبعض يختـار العبث، لأنـه يرى العـالم بلا معنى، مجرد سلسلة من المصادفات التي لا تقود إلى شيء.

لكن ماذا لو لم يكن هناك إجابة واحدة؟ ماذا لو كان الحل هو أن نخلق المعنى بـأنفســـنا؟ في روايـة البحث عن المعنى لفيكتور فرانكل، يروي الكاتب تجربته في معســـكرات الاعتقال النازية، حيث رأى بأم عينيه كيف ينهار البعض، بينما يتمســـك آخرون بالحياة رغم الجحيم. لم

يكن الفرق في الظروف، بل في المعنى. من وجد سببًا للحياة، استطاع أن يحتمل أي شيء.

هل هناك مخرج إذًا؟

كيف نجبد مخرج، وكل من حولنا يبدو ككذبة كبرى، خدعة متقنة بُنيت بحرفية لتمتص أرواحنا دون أن ندرك؟ العمل، السياسة، الدين، الحب، العدالة... كلها أوهام نركض خلفها حتى الإنهاك، وحين نصل، نكتشف أنها كانت سرابًا. العالم اليوم، أكثر من أي وقت مضى، صار ساحة صراع مفتوحة، حيث يسحق القوي الضعيف بلا شفقة، ويُستعبد الإنسان باسم الحرية، وتُصادر أحلامه تحت مسمى "الواقعية".

أشعر أنني أعيش وسط حرب غير معلنة، حيث يكون الخيار الوحيد هو الاستسلام أو الانتحار البطيء تحت وطأة العادة والتكرار. كل صباح هو تكرار مرهق لمشهد لم أكتبه، لكل القرارات التي لم أتخذها، ولكل القيود التي لم أطلبها. وحتى حين أحاول الثورة، أجدني محاصرة بقوانين غير مرئية، تُجبرني على التراجع، على التصالح مع القبح، لأن الحياة لا تمنح إلا خيارين: الخضوع أو النفي.

خذ مثلًا قصة جورج أورويل في 1984، حيث تتحول الحرية إلى سجن، وتُلغى الحقيقة لصالح الأكاذيب الرسمية، ويتحول البشر إلى

كائنات مسيَّرة لا تملك إلا أن تصدّق ما يُملى عليها. أليس هذا ما نعيشه اليوم؟ ألا تُفرض علينا أفكار جاهزة حول كيف يجب أن نكون، كيف يجب أن نفكر، كيف يجب أن نحلم؟

السياسة ليست سوى نسخة حديثة من حلبات المصارعة الرومانية، حيث تُرمى الشعوب كفرائس، بينما يتلذذ الساسة بمشاهد الدماء، وينسجون خطبًا رنانة عن الديمقراطية والعدالة، وهم يضحكون في سرّهم على سذاجتنا. في النهاية، المواطن ليس أكثر من ورقة تُستخدم في صناديق الاقتراع، ثم تُرمى بعد انتهاء اللعبة. هل تذكرون مقولة نيتشه: "السياسيون لا يفكرون أبدًا في الأجيال القادمة، بل في الانتخابات القادمة."؟ هذه هي الحقيقة العارية؛ السياسة لم تُخلق لتحرر الإنسان، بل لتصنع منه عبدًا جديدًا، مُستَغَلًا تحت شعارات برّاقة.

وما يزيد المأساة أن هذا القهر يُمارَس بيد الضحية نفسها. الشعوب التي تئن تحت وطأة الظلم هي نفسها التي تهلل للجلاد، تدافع عنه، تمجّده، وتُبرر أفعاله. ربما لأن الإنسان بطبيعته يخاف الحرية، لأنه أدرك، كما قال إريك فروم في كتابه الهروب من الحرية، أن الحرية الحقيقية تأتي بثمن باهظ، وأن العيش في ظل الاستبداد، رغم قسوته، يمنح الإنسان راحة الاستسلام، ويعفيه من عناء التفكير والمسؤولية.

وإذا كان الرجل مسحوقًا تحت عجلة النظام، فإن المرأة تُسحق بدرجات مضاعفة، لأنها ليست فقط مواطنة في دولة مستبدة، بل هي كذلك أسيرة داخل مجتمع يمارس عليها استبدادًا آخر باسم العادات والتقاليد والدين. إن نضال المرأة ليس فقط ضد السياسة، بل ضد شبكة معقدة من القيود التي تلاحقها منذ ولادتها وحتى موتها، والتي تجعلها تعيش حياة مؤجلة، تابعة، تُقاس قيمتها فقط بمدى خدمتها للآخرين.

في النهاية، يبقى السؤال: كيف نكسر هذه الدائرة الجهنمية؟ كيف ننجو دون أن نصبح وحوشًا مثلهم؟

مرتين، مرة لأنها إنسان، ومرة لأنها امرأة. يولد الرجل ليجد نفسه مطالبًا بالقوة، بالنجاح، بالسيطرة، لكنه يملك على الأقل حرية المحاولة، بينما تولد المرأة لتجد نفسها مذنبة سلفًا، مطالبةً بتبرير وجودها، بإثبات أنها تستحق أن تُرى، أن تُسمع، أن تُحترم.

كبرتُ وأنا أرى النساء من حولي يتنقلن بين الأدوار التي لم يخترنها، أمهاتٍ يُضحّين بكل شيء باسم الواجب، زوجاتٍ يتحملن ما لا يُطاق خوفًا من العار، فتياتٍ يتم تلقينهن دروس الطاعة والصمت منذ الصغر حتى لا يخرجن عن "الحدود المرسومة".

أنا كفتاة في الحادية والعشرين، أعيش في مجتمع يُريني كل يوم كيف يمكن أن تكون الحياة قاسية، كيف تُباع المرأة بأثمان مختلفة: أحيانًا باسم الحب، أحيانًا باسم الدين، أحيانًا باسم العائلة، وأحيانًا باسم الحرية نفسها. رأيتُ نساءً يُحاربن من أجل حقوقهن، فقط ليُتهمن بالتمرد والانحراف، ورأيتُ أخريات يخضعن، لأن المقاومة تُكلّف أكثر مما يحتملن.

بينما في الجانب المظلم من الواقع الآخر، هناك نساء لم يخترن أن يكنّ أنفسهن، بل وجدن أنفسهن معروضات للبيع في سوق القيم المنهارة. بعضهن يبعن أجسادهن، وبعضهن يبعن أحلامهن، وكثيرات يبعن صوتهن وكرامتهن من أجل مكانة زائفة أو أمان مؤقت. في مجتمعات تدّعي الطهرانية، يُدان الضحايا بينما يُبرّأ الجلادون، وكأن المرأة التي وجدت نفسها في زاوية ضيقة لم تكن ابنة بيئة صنعتها قيود لا ترحم. هنا، تتحول الأنوثة إلى صفقة، والكرامة إلى سلعة، والعالم إلى مسرح يعج بالمنافقين الذين يشترون ما يستنكرون علنًا.

كما قالت فرجينيا وولف في كتابها غرفة تخص المرء وحده: "المرأة تحتاج إلى مال وغرفة خاصة بها لتكتب." وأنا أقول: المرأة تحتاج أولًا إلى مساحة في هذا العالم، إلى الوضوح الذي يحررها من الأوهام التي نُسجت حولها، الأوهام التي جعلتها تؤمن أن القوة تكمن في

التخلص من الرجل، في تحطيمه ورفضـــه كجزء من كينونتها. لكن الحقيقة التي يجب أن تدركها هي أن عظمتها لا تكمن في منافســـته أو تجاهله، بل في قدرتها على تحقيق التوازن بين ذاتها وبين الآخر، بين قوتها الشخصية وعمق العلاقة التي تبنيها معه. فالمرأة القوية ليست تلك التي تحارب من أجل إلغاء الآخر، بل تلك التي تدرك أن قوتها تنبع من دعمها للآخرين، ومن قدرتها على تفعيل شـــراكة متكاملة تعزز من وجودها بدلًا من أن تحد منه.

حين نرفع رؤوسنا إلى السماء، ونسأل: لماذا نحن هنا؟ لا يأتينا الرد، أو ربما يأتي في صورة صمتٍ طويلٍ يسخر منا. ألبير كامو قال إن العبث يكمن في أن يســـعى الإنســـان للبحث عن معنى في عالم بلا معنى. هل هناك ما هو أكثر مأساوية من هذا؟ أن يقضي الإنسان حياته وهو يحاول فك شيفرة وُجوده، ليكتشف في النهاية أنها شفرة لا وجود لها من الأصل؟

في بعض الليالي، وأنا أحدق في سقف غرفتي، أشعر أن العالم محض لعبة ضـــخمة، وأننا جميعًا مجرد أحجار شـــطرنج في يد لاعب مجهول. لم نختر أسماءنا، أو جنسياتنا، أو أديياننا، أو حتى العائلات التي ننتمي إليها. كل شـــيء فُرض علينا منذ اللحظة الأولى، ورغم ذلك، نعيش حياتنا وكأننا أحرار، نكافح من أجل قرارات، نتصـــارع على

أوهام، ونظن أننا نملك السيطرة، بينما الحقيقة أننا مجرد كائنات صغيرة تُقاد إلى مصائرها دون أن تدري.

هل أكون عبثية إذن؟ هل أضـــحك في وجه هذا العبث وأكمل حياتي كأن شـيئًا لم يكن؟ أم أقاوم، وأحاول أن أخلق معنى خاصًـا بي، حتى لو كان مزيفًا؟

حين أفكر في هذا، أتذكر دوستويفسكي حين كتب في رسائل من تحت الأرض: "أحيانًا أريد أن أتوقف عن التفكير، لكنني لا أســتطيع. فالتفكير مرض." وأنا أيضًا مصابة بهذا المرض، مرض التساؤل الدائم، مرض محاولة فهم ما لا يُفهم، مرض البحث عن يقين في عالم لا يمنح سوى الشك.

الإبداع لا يولد من الامتلاء بل من الحرمان. كل فكرة عظيمة كانت يومًا صـــرخة في وجه القبح، وكل نص خالد وُلد من رحم الألم. تأملوا التاريخ، تأملوا الأدب، الفن، الفلسفة... هل وُجد يومًا مبدع سعيد؟

حين كتب نيتشـــه: "ما لا يقتلني يجعلني أقوى." كان يحاول أن يُقنع نفسـه قبل أن يقنعنا، كان يُحاول أن يجد معنى لألمه، لأن أي شـيء يبدو أفضل من الاعتراف بأن الألم بلا معنى.

ولكن، ماذا لو كان الألم مجرد آلة طحن لا تهدف إلى شـــيء سوى التدمير؟ ماذا لو لم نخرج منه أقوى، بل أكثر هشاشة؟

أنـا أرى الألم في كـل مكـان، في وجوه العـابرين، في عيون الأمهات، في صـــمت الآباء الذين يحملون العالم على أكتافهم، في دموع الأطفال الذين لم يفهموا بعد لماذا يُعاقبون على شيء لم يفعلوه.

أشـــعر أحيانًا أننا جيل وُلد في الزمن الخطأ. نحن الجيل الذي لا ينتمي إلى الماضـي، ولا يجد مكانه في المستقبل، العالقون في منتصـف الطريق، بين قيم تنهار، وأخرى لم تُبنَ بعد. نعيش في عالم يطالبنا بأن نكون سعداء، بينما يسلب منا كل أسباب السعادة.

ورغم ذلك، لا زلنا نحاول. نحاول أن نكتب، أن نحب، أن نحلم، رغم أننا نعلم أن كل هذا قد ينتهي في لحظة. ربما لأننا أدركنا، كما قال ماركيز في مائة عام من العزلة: "الحياة ليســت ما يعيشــه أحدنا، بل ما يتذكره، وكيف يتذكره ليحكيه."

أتذكر في هذه اللحظة مســـرحية في انتظار غودو لصـــمويل بيكيت، حيث يقف بطلاها في انتظار شـخص لن يأتي أبدًا. أليسـت هذه حالنا؟ ننتظر شـيئًا لا نعرفه، نسـير في طريق لا نهاية له، نحاول إقناع

أنفسنا بأن الغد سيكون أفضل، رغم أننا ندرك في أعماقنا أن لا شيء سيتغير.

لكننا نستمر. لماذا؟ ربما لأننا جبناء، لأننا نخشى مواجهة الحقيقة العارية، الحقيقة التي تقول إننا مجرد عابرين، وإن كل شيء سنبنيه سينهار يومًا ما.

أتأمل نفسي في المرآة، فأرى فتاة في الحادية والعشرين، تحمل في عينيها مزيجًا من الحلم والخذلان. أرى ملامح طفولية، لكنها تخفي وراءها فكرًا يتجاوز عمرها. أرى امرأة تتساءل كل يوم عن مكانها في هذا العالم، بين واقع لا يعترف بأسئلتها وعقل لا يتوقف عن طرحها.

كيف يمكنني أن أكون نفسي، وأنا محاصرة بكل هذه التوقعات؟ كيف لي أن أعيش كما أريد، في مجتمع لا يمنحني حتى حق السؤال؟

أنا لست تابعًا، ولن أكون. سأعيش كما أريد، حتى لو كان الثمن أن أسير وحدي. سأكتب، حتى لو كان صوتي يُغرقه صخب العالم. سأكون نفسي، حتى لو كرهني الجميع لذلك، فما الجدوى من أن أعيش حياة ليست لي؟

إن العالم كما نعرفه ليس سوى انعكاس مشوه لحقيقتنا، مرآة مكسورة تعكس أجزاء مما نريد أن نكونه، لكنها لا تمنحنا الصورة الكاملة. نعيش في صراع دائم بين ما نحن عليه وما يُراد لنا أن نكون، بين قناعاتنا التي نحملها في أعماقنا والمجتمع الذي يحاول تشكيلنا وفق قوالبه الجاهزة. لكن، هل يجب أن نستسلم؟ هل علينا أن نعيش حياة ليست لنا لمجرد أنها الأكثر أمانًا؟ لا. فالمعركة الحقيقية ليست في النجاة داخل هذا النظام، بل في القدرة على كسره، في خلق فضاء خاص بنا، حيث لا نحتاج إلى التبرير المستمر لوجودنا، حيث لا يكون اختلافنا سببًا لنبذنا، بل مصدر قوتنا. المرأة، الإنسان، الفكر، الحرية... كلها ليست امتيازات تُمنح، بل حقوق تُنتزع. من يختار الصمت، يموت حيًا، ومن يختار أن يكون نسخة، يدفن ذاته بيديه. في النهاية، نحن لسنا مجرد ظلال في انتظار غودو، ولسنا مسوخًا نكرر حياة لا تخصنا. نحن أحياء بقدر ما نمتلك الشجاعة لنكون أنفسنا، وبقدر ما نجرؤ على رفض الأدوار المفروضة علينا. قد يكون الطريق الوحيد هو السير عكس التيار، حتى لو كان الثمن الوحدة أو النبذ، لكنه الثمن الوحيد لحياة تستحق أن تُعاش.

بين الواقع والخيال

أحمد عبد الحكيم محمد محمد على: *كاتب وشاعر مصري ازداد سنة 1980*

في عصـــر يموج بالمعلومات والآراء المتباينة يصـــبح امتلاك عقل منور ضـــرورة لا ترفيها فالعقل المســـتنير ليس مجرد مســـتودع للمعرفـة بـل هو أداة تحليليـة قـادرة على التفريق بين الحقيقـة والواقع والوهم والخيـال وبين المنطق والعبـث وبين العلم والخرافـة ولكى نبنى عقلا مستنيرا واعيا علينا بمواجهة تحديات العصـر فإن عصـر السـرعة هذا يتسـارع فيه الجميع للحاق ببعضـهم البعض نحو مواكبة الحياة وفق النمط السـريع من التفكير عند التحرُّك والترقُّب الدقيق عند السـكون لهو علامة بارزة من علاماته الراهنة فالوقت هو ذات الوقت لكن سرعان ما يكســـب أقوام مكســـبا رائعا من منـافع الدنيـا تعينهم على دوام بقائهم وغيرهم يخسـرون خسـارة ذريعة بأقل من غمضـة عين عبر اتصـال هاتفي عابر عبر القارات مثلاً ولا غرابة في ذلك فقد صـار الخيال واقعا وما كان حلما فخيالا ثم أضحى حقيقة لا احتمالا ولقد وصل الإنسان بعلم من الله الى الفضـاء وصـارت التلسـكوبات الفلكية التي ترصـد الأجرام

السـماوية والمجرات العملاقة والأقمار المنيرة المتنوعة والكواكب المتباينة الأشكال والأحجام كمن يمسك بسم الخياط بين يديه أمرا في غاية اليسر والسهولة فكم كنا نطلق النظر إلى غموض السماء وما نجهل من خفاياها حتى ولجنا دارها وفتحت أنحاؤها وغلِّقت أبواب الجهالة يوما بعد يوم فمانحن بالجان يسترق السمع ليأتي بأنبائها ولكن من كرم الله أن من علينا بالعقل الواعي والقلب الراقي لنتدبر آياته رحمة منه ولُطفا فإن لم نكن نعلم الغيب فليكن سعينا إلى العلم في جميع تخصصاته ومجالاته كالعلم الديني والتجريبي وكفى بالله علينا وكيلا فربك حينما خلقنا أطوارا من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظام فكساها لحما وأنشأنا خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين لم يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير وأثبت العلم الحديث ذلك بعد قرون فأثبت أيضا صدق النبي الهادي البشير فنرى اليوم علوما شتى لمست أعطاف كل دار وقرار إذ امتدت أسلاك عبر المحيطات و ارتقت أقمار صناعية عُليا عبر الفضاء ذوات مراكز خاصة لإصدار واستقبال الإشارات الإلكترونية وما كان غائبا في علم الغيب صار واضحا أمام أنظار العالم أجمع بجميع ما يحتوى عليه من اللغات و الديانات والثقافات والأفكار البسيطة والضخمة الهائلة وما خفى كان أعظم فإن علم الغيب يحمل في طيَّاته المزيد من الخبايا والأسرار التي لم يكشف عنها الستار بعد في هذا العالم المرئي والتي باتت عجائب المخلوقات فيها تحت طي الاكتشاف حتى الآن فلا

تحتويها العلوم الشـافية الكافية وبحسـب ما تم العثور عليه من حفريات قديمـة تليدة عتيقة تعود إلى أزمنـة بعيدة الأمد متفاوتـة في صـــورها وملامحها وما نتوقع من أســرارها فما أن تضـــعها تحت التصـــوير المقطعي مثلا أو التصوير الليزرى أو التصوير المغناطيسي حتى تتضح الرؤية عن كثب لك لتجد اكتشـــافات لا قبل لك بها ودلائل عن أفكار صـائبة فعلها البشر وأفكار خائبة الرجاء ما أنزل الله بها من سلطان فإذا رأينا جهاز الكمبيوتر بكافة صـــوره و أنواعه وأحجامه مثلا أو الهاتف الذكي كما ندعوه بالموبايل فكم فيه من علم وجهد فائقين وهو بين أيدينا يشـبه عصـر المعجزات وما يتصـل به من شـبكات محلية وعالمية تحيل الواقع إلى ما يشـــبه الخيال فأصـــبحت تقدر أن تقوم بأشـــياء وفعال في حياتك لم تكن في الحسبان من قبل وتلك من قدرة الله الذى أتقن كل شيء خلقه فجميع ما يصـدر من اكتشـافات وابتكارات و اختراعات بيد علماء الجيولوجيا في باطن الأرض مثلا أو علماء الفضـــاء أو علماء النفس والاجتماع والفلســـفة والمنطق وغيرهم من العلوم الحياتية لا تقف تلقاء زمن محدد بعينه أبدا ولكن المنافســـة الشـــديدة في أعتى وأقوى حالاتها حاليا خاصة في عصر يدعى على الملأ بعصر العولمة فالانفتاح الثقافي على ثقافة الآخرين واحترام التعددية الفكرية ضـــروري ومما يتطلب على النفس البشـرية عمله وأداؤه فلا يمكن للعقل أن ينمو في بيئة منغلقة على ذاتها بل يحتـاج الى الاحتكـاك بـالآراء المختلفـة فـإن التفـاعل مع

الأفكار الجديدة لا يعنى قبولها دون تمحيص بل فهمها وفحصـــها بعقل متفتح فالحضـارات العظيمة لم تزدهر إلا من خلال الحوار والتفاعل مع الثقافات الأخرى وقد أظهر الفيلسوف " إيمانويل كانط " هذا الجانب من الفكر العقلاني فقد أصبح العالم مثل القرية الصغيرة فيه يعرف القاصي من البلاد ما يفعل الداني عبر شاشة إلكترونية صغيرة تجول بين أنامله وترحل عن أصـابعه الصـغيرة بعد حين فلا المواقيت صـارت حجابا وستارا بين من يستيقظ صباحا من نومه ولا من يرقد في فراشه فوق أريكته ليلا وذلك من آيات الله وإن لكل زمان آية و إن آية هذا الزمان وعى الناس وإدراكهم بأنهم قادرون على الأرض وما عليها يفعلون ما يشاؤون وقتما وأينما يشاؤون كأنهم سادة العالم ولا يعرفون أن الإنسان عبد الله في الكون لا سيد الكون وتلك من أخدع الآيات لمن سفه نفسه وهى أبصـرها لمن حفظ نفسـه من الهلاك ومن علاماتها رؤية ثقافات الشـعوب رأى العين كمن يرى أبيه و أمه صـوب عينيه وإن كل ثقافة يتبعها أصحابها لها شأنها وبأسها وحالها وهى مما غمرت أفئدة بعض الناس فصاروا يمتثلون ببعض مما تحمل من مساوئ وعيوب فإن الفكر المغاير لثقافتك ليس بالأحرى قاعدة من قواعد حياتك فلأتمسك به كأنه عقيدة راسخة فما هو إلا سراب سُرْعان ما يزول بحسب ما أشار اليه بالقول الطيب الفيلسـوف " نيتشـه" الذى انتقد التقاليد الغربية وتأثيرها على الدين ودعا إلى إعادة تقييم القيم الإنسـانية فإذا اتسـع لي القول

فســـوف أعود إلى ما ابتدأت به وهو أنَّا نعيش في هذا العصـــر الحالي المسمى بعصر المعلومات أيضا وفيه أصبحت الإحصائيات أداة أساسية لفهم الواقع واتخاذ القرارت المســتنيرة حيث تشــير الدراســات إلى أن 90% من البيانات المتاحة اليوم قد تم إنشــاؤها خلال الســنوات القليلة الماضية فقط مما يعكس الثورة الرقمية الهائلة التي نشهدها وعلى سبيل المثال فقد أظهرت دراســة حديثة أن معدل القراءة في العالم العربي يبلغ حوالى 6 دقائق ســنويا للفرد مقارنة ب 200ســاعة ســنويا في بعض الدول المتقدمة وهذه الإحصــائية تسـلط الضــوء على تحديات كبيرة في نشــر الثقافة وتعزيز الوعى كما تشــير تقارير اليونســكو إلى أن نســبة الأمية في العالم العربي تتراوح بين 20%و30% مع تفاوت كبير بين الدول فإن هذه الأرقام تحث على أهمية الاستثمار في التعليم والمبادرات الثقافية لنشر الفكر المستنير وبناء مجتمعات قائمة على المعرفة ومن ثم فإن الإحصائيات ليست مجرد أرقام بل هي مؤشرات تساعدنا في رسم سياسات فعالة نحو مستقبل أكثر إشراقا حيث تصبح العقول أكثر وعيا والمجتمعات أكثر تقدما .

فالمعرفة هي بداية طريقك في غمار حياتك و هي الأســـاس الذى يبنى عليه الوعى لكنها لا تقتصـــر على الكم المعلوماتي فقط بل تشــمل القدرة على التحليل والنقد فالقراءة المتنوعة في الفلســفة والعلوم

والتاريخ والأدب تفتح الأفق وتكسر القيود الفكرية وكما قال الفيلسوف "فرانسيس بيكون " المعرفة قوة فلا معرفة بدون فكرة وكلما تنمو الأفكار يثمر العمل والإبداع وكلما توقف الطموح عن التفكير في غد وما تعاصره اليوم من أحداث وما تعلمت منه بالأمس فلا أنت تشعر بقيمة الحياة ولو كنت ذا أنفاس ورزق في الحياة ومن ثم فقد تبعت المعرفة حضارات قديمة وحديثة فازت بالسبق على جبهات كثيرة وفى مجال العلم الطبيعي مثل الكيمياء والفيزياء وعلم الحيوان والنبات والأرض والرياضيات ولهذه الحقول البحتة فرادى وجماعات حقول تطبيقية تدريبية نشأت عنها وفيها النفع المباشر للناس فظهر علم الطب والهندسة والصيدلة والاقتصاد والساسة وانتشرت دوائر المواصلات العامة وبها زهت الصناعات والتجارة عبر البلاد فأنشأ الزمان على إثرها أعمالا مجيدة وآمالا عديدة لطالما اعتمدنا عليها حتى اليوم.

ومن ثم تعم إذن فكرة الحرية بنوع فريد من التقييد في أرجاء المعمورة وقد دعا اليها الفلاسفة القدامى "جون لوك" و"جان لوك "و"جان جاك روسو" أو" جون ستيوارت ميل" فكل منا يفهم معناها حسبما يقتضى إليه الفهم والاستيعاب وتحوم حولها الأفكار فمن الناس من يرى أنه حين يفعل ما يريد فهو حر مطلقا ومنهم من يعد القوانين ميزان حياته ومنهم من يعدها بمثابه احتلال فكرى وثقافي لأرضه

وعرضـــه وبلاده فيختلف مدلول الحرية من فرد لآخر ومن جماعة لأخرى ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ولكن الحق والصدق والإخلاص في القول والعمل هو الماء والهواء لمن يريد أن يكون حرا ولو انبثقت العقبات وتأرجحت العراقيل.

ولا تمر فكرة الحرية مر الســـحاب أو مر الكرام فلابد لها من انتقاد فقد ظهر التفكير النقدي الذى نعرفه بســلاح العقول المنورة حيث لا يســلم الإنســان بأي فكرة دون تحليلها وفحصــها فالعقل الحر لا يقتل المعتقدات الجاهزة بل يبحث عن الأدلة ويختبر الفرضـــيات ولعل الفيلســـوف "إيمانويل كانط" عبر عن ذلك بقوله " التنوير هو خروج الإنسان من حالة القصور التي فرضها على نفسه وكما يقول الفيلسوف " ســقراط" : إن ابتداع الفكر أعلى درجات اللذة النفســية التي يمكننا أن نحصل عليها في حياتنا الدنيا" والفكر الإنساني بلا علم كالعهن المنفوش أو كالهشــيم فالعلم هو الطريق نحو النور وهو عالم هائل في حد ذاته لا نزال نقتبس منه العجب العجاب فيما يروى ظمأنا حتى إذا اشتد بنا الظمأ ركضنا إليه في عُجالة حتى نرتوى منه فهو سلاح باتر كاسر لمن يريد النيل منا وإن اكتشــافا بســيطا صــغيرا مثقال حبة من خردل من العلم ليفتح آفاقا من النهضـــة والازدهار وأبوابا لا تنغلق من الرزق حيث قال رب العزة ســبحانه (هل يســتوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال

نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سـهل الله له به طريقا الى الجنة " وكما تعلمنا صـغارا مقولة خالدة في الأذهان بأن التعليم في الصـــغر كالنقش على الحجر فلا يأخذك الغرور أنك تعلم من العلم أمرا لم يصـــل إليه غيرك فكل امرئ حلقة مقيدة بما يعقبها مثل القلادة وقطعها هلاكها فلا يمكن الحديث عن التنوير دون التطرق إلى أهميته وقد أشـار اليه بالثناء الفيلسـوف " فرانسـيس بيكون" على أنه أداة لتحسـين حياة البشـر فهولا يكتفى بإعطائنا إجابات فحسـب بل يعلمنا أيضـا كيف نطرح الأسـئلة الصـحيحة فهو الذى حرر البشـرية من أوهام كثيرة بدءا من الاعتقاد بأن الأرض مســـطحة وصـــولا إلى التطورات الحديثة في الذكاء الاصـطناعي واستكشـاف الفضـاء وكيف لا نفكر وقد وهبنا الله العقل ويكف لا نشكره وقد أعطانا سعة من العلم ولله ما أعطى ولله ما أخذ وكل شـيء عنده بمقدار فلو نظرنا نظرة قريبة إلى العقل الإنسـاني لرأيناه أقرب شـياه برحم الأم فهو رهين بان يُصـاغ إليه من معارف فالجنين هو ثمرة الزواج وحينما يكتمل نموه حتى تلد الأم كذلك تماما بتمام يكون الإبداع في كل نواحي الحياة فإذا اختل العقل اختلت سلوكيات الإنسـان بصـفة عامة ولئن رحل العقل أصـيب الإنسـان بالجنون فالعقل يسـعى دوما الى المعرفة كالنبات الأخضـر يسـعى الى الماء ويضـــرب بجذوره وأصـــوله إلى أغوار الأرض حتى ينال منها قسـطا مما يروى به ظمأه لذلك فإن مادة الفكر الإنسـاني تسـتقى أبعادها

من العلوم والمعارف جميعا سـواء ما تتوارد الألسـن والأفواه كما عهده القدماء من حفظ واسـتظهار عبر الذاكرة البشـرية فيسـردون أقوالا وأعمالا وفق ما تحفظ عقولهم من علم وكذلك وفق ما نتداوله من كتب ومجلات ومسـتندات وأوراق ورقية وإلكترونية فإن كانت مادة علمية صـالحة نافعة فلا بئس أن يتخذها الناس مرجعا وملاذا و متكئا لهم حين الحاجة إليها ولو كانت ماده علمية سـيئة ضـارة رديئة شـائنة مهينة فلا ربحت ولا غنمت ولا فتقت أزاهيرها فهي بمثابة قنبلة موقوتة أو لغما خافيا خافتا تحت الثرى اجتنبها واضـرب بها عرض الحائط وكم نرى اليوم أمثال ذلك من معلومات خادعة لا تسـمن ولا تغنى من جوع تتراقص كالريشة في مهب الريح إذا أدرت جهازك الهاتفي حينا ظهرت بعض الأكاذيب من معلومات وهمية ورأيت بعض المعلومات البينة المبينة أمامك مما لا غبار عليها فعلمت الصـادق منها من الكاذب وكم من إنسان يرفع تاج الكبرياء من العلم فأذله الله ولو كان مثل قارون وكم من إنسـان يخفض جناح الذل من الرحمة للناس ولو كان ذا علم يسـير فأعزه الله والأيام والناس أشـهاد على ذلك فالأخلاق نواة المعاملة فالقيم الأخلاقيـة والتنوير الروحي العقـل المنوَّر لا يعنى التخلي عن القيم الأخلاقية بل بالعكس فالتنوير الحقيقي يرتبط بمسـؤولية أخلاقية تجاه المجتمع والإنسـانية فلا فائدة من علم دون ضـمير ولا من فكر دون إنسانية وكما قال "ألبير كامو" :كل المعرفة بلا ضمير ليست إلا خراباً

للنفس، فإنَّ كل إنســـان يكرم نفســـه باكتســـاب العلم والمعرفة والثقافة ويحفظ نفســه ويصـونها من مهانة سـوء الخلق وعليه باحتراف ما يعمل من مشــروع نافع وتجنب المذلة فيما ســاء من عمل وأن يتحرَّى الحكمة في شـؤون حياته فيضـع الأشـياء في مواضـعها الصـحيحة وتكون آراؤه على أحسـن وجه ويدقق في حقائق الأمور و يميز بين الصـواب والخطأ والصدق والكذب ويتمهل في كل الشؤون ويتجنب العَجَلَة في كل الأمور توافقا مع قول صـــائب وفعل راجح فيحظى بثقة الناس ويطمئن الناس إليه فلا يدع الى الريبة موطنا ولا إلى الهواجس موضـــعا فإذا تم ذلك جميعا استنارت العقول واستضاءت القلوب واستراحت النفوس واستعان كل امرئ بما يحق له من اسـتعانة ومن يسـتحق التعامل معه فأصـبحت المعاملات الصالحة لبنة حسنة في بناء مجتمع صالح وفكر سليم، ولو تم التدهور الأخلاقي والقيمي في المجتمع صـارت الكلمات أشـوكا ونِصَـالاً حادة وجِرَاحًا فلا لذة من تطور تكنولوجي وإلكتروني واســع شـــاســـع المجال فكل ذلك يذهب أدراج الرياح فليس الأمر يتعلق بضـــخامة الفكر بقدر ما يتعلق بعذوبة الأخلاق وكم من الرياء أصـناف وأنواع يتسـابقون في حياتنا وكم من النفاق دعائم هشَّـــة رديئة ترتكز على أرض الأكاذيب وكم يحرِّك ذلك هجرة الأخلاق وســفر الضـــمائر فلو فكَّر الإنســـان ولو لحظة واحدة قبل أن يبعث برســـالة الكترونية شـــيطانية إلى الأقربين أو إلى قوم غرباء ما حدث النزاع وما حصـل الشِّـقَاق فالتكنولوجيا الحديثة

وما يليها من تطوير قادم جنود من الله لنا تعين الناس على قضـــاء حوائجهم ولا غاية منها إلاَّ الصـــلاح والإصـــلاح بين الناس على وجه الأرض قاطبة ولو حدث غير ذلك فما الداعي لتحمُّل آثارها الوخيمة إذن كاختراع القنبلة النووية مثلا وما يتعلق بمشـــروع مانهاتن فلم يكن "آينشتاين" شريكا في تصنيعها إذ فكَّر في عرض معادلة حسابية يوما ما حسبما فكَّرولكن كان" روبرت أوبنهايمر " هو من قام باختراعها وقد عرف بأنه عرَّاب القنبلة الذرية وقد ندم ندما شـديدا على ما تم من دمار شـامل وفقا لاختراعه وتمنى أنه لم يفعل فالفكرة الواحدة التي تطرأ على خيالك لها عواقب نافعة أو ضارة وليس كل ما يدور بخيالك أنت صوابا فما بين الواقع والخيال إلا خيط رفيع من العمل فإذا اتصـل صـار واقعا وإذا انقطع صار خيالا.

ومن رغبة السـعي نحو مسـتقبل أكثر إشـراقا وجب علينا بناء عقول منورة وليس ذلك مهمة فردية فقط بل مسـؤولية اجتماعية شـاملة تبدأ من الأســـرة والتعليم والثقافة العامة فبقدر ما نســـتثمر في الفكر والمعرفة نصنع مستقبلا أكثر وعيا وإنسانية والتنوير ليس وجهة نصل إليها بل رحلة مسـتمرة من البحث والسـؤال والتطور وينبغي أن نقوم بالتغيير التام بداية من أنفســـنا حيث قال الله تعالى {لا يغير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفســـهم}فإن كل شـــيء في الكون يتغير وإن كل كائن

يتبدَّل تبديلا فأينما كنا فإنما نرى ذلك في آيات الله وخلقه وإحكامه الرزين المتين المبين الذى لا تشوبه شائبة أبدا أية شائبة فخلق كل شيء بمقدار وأحكم علمه فأتقن كل شـــيء ومن ثم كان علينا أن نتعلم إحكام امورنا والتوجه المباشـــر للتعلُّم الهادف وإتقان ما نعمل و كما يقال من قول "أحب ما تعمل واعمل ما تحب"

ومن أجل ذلك يعد الانفتاح الثقافي من أهم العوامل التي تســـاهم في بناء عقول مســـتنيرة قادرة على التفاعل الإيجابي مع العالم فهو ليس مجرد تفاعل للمعلومات بل هو وســـيلة لفهم الآخر واحترام التنوع وتعزيز الإبداع لكن كيف يمكن تحقيق هذا الانفتاح دون المســـاس بالقيم الدينية والتربوية التي تشـــكل هوية الأفراد والمجتمعات فالتربية درب يصل الى الدين ودرب الدين يصل الى التسامح والولاء والاخاء فلكى تكون عاقلا حكيما يجب أ تكون متسامحا سهلا سمحا يسيرا ولا ننسى ما أبداه الفيلسوف "فولتير " بشأن ذلك

فقد يعتقد البعض أن الانفتاح الثقافي يتعارض مع القيم الدينية لكن الحقيقة هي أن الأديان تدعو إلى التعارف والحوار بين الشـــعوب ويقول الله تعالى في القرآن الكريم "وجَعَلْنَاكُمْ شُـــعُوبَاً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"{الحجرات}:آية13مما ومن الإنجيل في العهد الجديد ما يشـــير إلى ذلك في المحبة مثل " أحبّوا أعداءكم ، باركوا لأعنيكم , أحسنوا إلى

مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم" (متى 5:44) وفى التسامح " لأنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوي" (متى6:14)وفى السلام " طوبى لصانعي السلام ،لأنهم أبناء الله يُدعون"(متى5:9) وفى التعارف "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس "(متى 28:19) ومن التوراة في العهد القديم ما يذكر في جانب المحبة " لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك ، بل أحب قريبك كنفسك "(لاويين 19:18) وفى جهة التسامح " إن جاء عدوك فأطعمه خبزا ، وإن عطش فاسقه ماء"(أمثال25:21) وفى ناحية السلام "ابتغ السلامة واسعَ ورائها " (مزمور 34:14)وفى وجهة التعارف فهناك دعوات كثيرة في التوراة للعدل والرحمة مع الغرباء مثل :" وكأنما أنكم كنتم غرباء في أرض مصر فاذكروا أنكم كنتم غرباء" (خروج22:21) مما يعكس ذلك جميعاً أهمية التفاعل مع الثقافات الأخرى بطريقة تحترم القيم الدينية ونشر القيم الإنسانية السامية مثل المحبة والتسامح والسلام وهى تعاليم تتلاقى مع الرسائل السماوية الأخرى ومنها الإسلام الذى يدعو إلى التعارف والتعاون بين الناس في مشارق الأرض ومغاربها فالانفتاح لا يعنى التخلي عن الهوية بل تعزيزها من خلال الفهم العميق للذات وللآخرين وهو يعلمك أن ما تقوم بزراعته من الخير تجني به خيرا وأن نفسا أمارة بالسوء إلا ما رحم ربى لهى التهلكة وبئس القرار وكما يذكر " أدوين

إمري " وغيره من الكتـاب عن تـاريخ الكتـاب في الولايـات المتحـدة الأمريكية منذ عام 164م قائلا "إن نشر الكتب في باكورة النشر كان ذا مســـحة دينية " ولابد من التوفيق بين العلم والدين مما دعا اليه من قبل العالم والفيلسوف "ابن رشد " فلا علم بلا دين ولا دين بغير علم فكلاهما وجهان لعملة واحدة والدين يدعوننا الى الاهتمام بالتربية والنشأة السوية من أجل بناء مجتمع مثالي لا جُرم فيه ولا جريمة كما تبنى هذا الرأي الســابق الفيلســوف " أرســطو "فالتربية تلعب دورا محوريا في توجيه الأفراد نحو الانفتـاح الإيجـابي بعيـدا عن التقليـد الأعمى أو الانغلاق الفكري فعندما ينشـــأ الطفل في بيئة تحثه على التفكير النقدي وتشـــجعه على الاطلاع على ثقافات متنوعة مع الحفاظ على جذوره فإنه يصـــبح قادرا على اســتيعاب التنوع دون أنم يفقد هويته ولأن التربية تســتغرق أوقاتا من الحياة لكى تجنى ثمرة الصـــلاح والنجاح والفلاح بين افراد أسرتك أو من تقوم بتربيته فقد اتضحت الرؤية وبرزت قيمة الوقت الذى لا يقدر بثمن وهو العنصر الذى لا يمكن استرجاعه وبمجرد أن يمر فبه يمكن للإنســان أن يكســب المال ويســتعيد الصــحة ويبنى العلاقات بين الناس لكن أقل اللحظات التي تذهب من حياتك لن تعود أبدا فهو الحياة وكل لحظة تمر تقتطع جزءا من عمر الإنســـان لذا فإن إدارته بحكمة تعنى استثمار الحياة بشكل أفضل وهو لا يُشترى فلا يمكن استبداله أو زيادته مما يجعله المورد الأكثر ندرة و أهمية وهو مرتبط بالإنجاز

فالناجحون هم من يدركون أهميته فيستثمرون في التعلم والعمل والتطوير الذاتي وهو يحدد النجاح والفشل فمن يضيع وقته في أمور غير مفيدة يجد نفسه متأخرا عن تحقيق أهدافه لذلك فقد وجب علينا وضع خطط يومية وأهداف واضحة وتجنب التسويف وتأجيل المهام والاستفادة من وقت الفراغ في التعلم أو تطوير المهارات والتركيز على الأولويات بدلا من الانشغال بأمور غير مفيدة فلا تغتر بمرور الوقت عبثا ولهوا ولعبا فما هو إلا عمرك تهدره بين يديك طغيانا وكفرا ولو قلت " أنا حر أفعل كما أشاء وكما يحلو ليفهدا تماما ما صاغه أحد الفلاسفة مثل " ألبير كامو" و" "جان بول سارتر" و" مارتن هايدغر" بكلمات رنانة انعكست في كتابة الأدب من خلال أعمال مثل " الغثيان " لسارتر و"الغريب" لكامو وفى السينما والمسرح خاصة في اعمال "بيكيت " و" كافا" ومن ثم تم انتقاد نظرية الوجودية باعتبارها تؤدى الى العدمية واليأس بينما يراها آخرون فلسفة تحررية تمنح الإنسان القوة والمسؤولية الكاملة عن حياته ولو زعمت أن الإنسان حر تماما في اختيار أفعاله لكنه يتحمل مسؤولية هذه الأفعال دون اللجوء إلى أعذار خارجية أو أن القلق والعبث جزء طبيعي من الوجود خاصة عندما يواجه الإنسان عدم وجود معنى ثابت للحياة ولا توجد حقيقة مطلقة أو معنى عام للحياة بل لكل فرد تجربته الفريدة التي تمنحه المعنى التام

لذلك ولا يمكن فهم الحياة بشـكل كامل من خلال الفلسـفات المجردة بل من خلال التجربة المباشرة والاختيارات الشخصية.

فـإن تحقيق الانفتـاح الثقـافي الواعي يتطلـب مزيجـا من التعليم الجيد والحوار البناء والإعلام المسـؤول حيث يتم تقديم الثقافات المختلفة بأسـلوب يثرى العقول دون إثارة الصـراعات وبذلك نصـنع جيلا قادرا على التواصـل مع العالم بعقلية منفتحة لكنه في الوقت ذاته متمسك بقيمه وأصـالته فالانفتاح ليس تهديدا بل هو فرصـة لتنمية العقول وتوسـيع الآفاق نحو مستقبل أكثر وعيا وتسامحا ولا نغفل قيمة الوقت الذى ينحدر بيننـا كـالندى وقطرات المطر وإن الوقت بمثـابـة الأعمـار التي نحيـاهـا ونسـأل عنها يوم القيامة فإن لم تقطعه قطعك فأنت أيها الإنسـان كل عمرك وقت وحياتنـا جميعـا مـاهي إلا وقت معلوم فحذارى من الغفلـة والحسـرة والندامة فيضـيع عمرك سـدى فتلك كما هلك بعض الناس بأوهام وإن الأعمال الجادة ميثاقها ووثاقها فكم من أمرئ اضـاع الوقت من قبضـته كما تضـيع الناقة الهوجاء في الصـحراء من راعيها غير الأمين ومن أعمل عقله في الخير نال ثوابا وترحابا فكم من بحث علمي أثار أفكارا وكم من ابتكار ألفى ضـجة واندهاشـا وكم من اكتشـاف ترك تسـاؤلا لا ينقضـي وكم من اختراع ألصـق اسـم صـاحبه في صـفحات التـاريخ وانمـا المنـافع التي تقدمهـا الى غيرك هي طوق النجـاة لهم من

الغرق في كل أمر جلل عسير وخشية أن يكونوا على شفا حفرة من نار الصعاب فإن مع العسر يسرا ولاياتي النجاح إلا بالجهد ولا يأتي التوفيق إلا من الله فما توفيقي إلا بالله وكان فضـــل الله عليك عظيما فانظر في عصـر التكنولوجيا مدى تقارب الناس وان كانوا على مسـافات بعيدة من مرأى العين فاخترق العلم الإلهي أحكام الطبيعة وصـــار بالإمكان أن تتواصـــل وتشـــارك الرأي مع من لم يمت لك بصـــلة ومع عزيز لديك فصـلت الأبعاد والآماد فيما بينكما فكان المحال محالا حتى اسـتحال الى خير حال فأنت تتعلم من إنســـان علما ولغة وثقافة وفقها ودراية في أقل وقت ممكن فكأنما العلم سـاحر وما هو بسـاحر وبرغم أن التكنولوجيا قد تخطت أحيانا حدود العقل إلا أنه لا يزال هنالك قلوب ذات نوايا حســـنة وعقول تثمر ثمـارها بـالإيمـان فمـا التكنولوجيـا جميعـا تســـئ اليك ولا جميعها يحســـن اليك فهما أشـــبه بكفتي ميزان وما عليك إلا أن تثقل كفة الخير منها لكى يثقل الخير فعلى ســـبيل المثال لا الحصـــر فإن كانت الصـــحائف الورقية فيما دعاها بعض الناس "قراطيس" تداولتها أيدى الناس موجودة منفردة بطابعها الخاص إلا ان هنالك الاتجاه الإلكتروني أيضـــا فأمكن الله بعض الناس من النشـــر الإلكتروني بكافة حالاته ومعلوماته قاب قوسين أو أدنى من السمع والبصر والفؤاد وما عليك إلا أن تجتبى أيهما الأنسب عندك سبيلا ولقد انتهى زمن المعجزات بانتهاء عصر الأنبياء فما بالك بمن ينشد شعرا مرتجلا فيقول:

وانى وإن كنتُ الأخيرَ زَمَانُهُ ** لآتٍ بمَا لَم تستطِعْهُ الأوَائِلُ.

فأنصت اليه مستمع من الحاضرين بجواره فرد عليه : هات حرفا من الحروف دون اللغة العربية افصحي فأعياه ولم يرد جوابا فإنما الله هو العلم المطلق ولا يصل إلى علمه أحد وصاحب القدرة المطلقة لا ينازعه فيها أحد أبد الدهر فالحروف العربية الأبجدية هي التي تنشئ الكلمات والمفردات ذات المعاني والأهداف وتؤسس فكرة الكتب والمحاضرات وتدعمها الأوراق والتكنولوجيا بالتدوين فقد أنشأ " وليام ريتنهاوز" أول مصنع للورق في ,بنسلفانيا, عام 1690م ويقول " فرانسيس روجرز" في كتابه الذى يؤرخ فيه قصة الكتابة والطباعة أنه في الوقت الذى كان فيه المصريون يلفون خضرواتهم بالورق لم يزد ما رآه الأوربيون في ذلك الوقت عن قطعة صغيرة أحضرها أحد التجار من الشرق على سبيل الطرافة فقد كانت صناعة البردى منذ القدم حيث كانت تنمو سيقان البردى في مصر وسيقان نبات الخيزران (البامبو) المجوف في الصين وتم انتاج الشكل البدائي لورق الحرير على يد "تساى لون" ومن الطريف أن "جوتنبرج" مخترع الطباعة يروى اسمه شرقا وغربا ومن الطريف أن بغداد ليس فيها مصنع للورق إلا في "نهران عمر" قرب البصرة ولكن التاريخ الزاهر للدولة العباسية يحدثنا عن أول مصنع في بغداد إبان عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد بعد

أقل من 50عاما من معرفة سمرقند لصناعة الورق وفى مجال النشر فلا ريب أن " برمبونيوس أتيكوس" أول ناشر تعرفه دراسات تاريخ الكتب حتى الآن ولا عجب أيضا حين يروى بعض المؤرخين أنه بحلول القرن الأول الميلادي كانت المكتبة شيئا أساسيا في البيت الروماني الثرى مثل دورات المياه تماما حيث بسط الرومان سيادتهم على العالم وفيما كانوا يعرفونها بأنها " روما القديمة" فما سردت من بعض أحداث التطور التاريخي بشأن الصناعة الورقية وبعض الأفراد المتميزين فيها وقاموا بتطويرها وانتشارها خطوة للاهتمام بالقراءة والكتابة ونشر العلم الصحيح والافكار السديدة والآراء الجادة وما دعم ذلك أكثر قيام بعض البارعين من المثقفين بعمل ترجمة بارعة للثقافات الأخرى وكما تقول بعض الألسن " من عرف لغة قوم أمن مكرهم" فصارت التراجم منهاجا لاجتياز ألباب الآخرين والانطلاق الى قلوبهم كالبراق أو الشهاب أو البرق الخاطف وما أكثر ما نلاقيه اليوم من بيّنة من لأمر فصرت تعلم ما لم تكن تعلم وأنت تضغط بالبنان على أحد مقاليد الأزرار عبر هاتفك فانظر ماذا ترى تجد الترجمة قامت بما لم تتعلمه في حياتك جميعا وادخرت عمرك وجهدك عبر لحظات قلائل من البحث الإلكتروني فاعجب من صنيع الله الذى إذا قال للشيء كن فيكون وكلما تطور العلم تطور العقل فأصبح أكثر تنويرا وإشراقا وتحررت النفس من الوهم والخيال نحو الحقيقة كما دعا إليها الفيلسوف "أفلاطون" في

عديد من الأقوال كأنما الوهم سجن وقيد ولابد أن تنزع القيود والأغلال لترى الواقع على حقيقته .

وآخرا وليس أخيرا فإنَّ العقل المستنير والمعلومات المفيدة للناس ركائز ودعائم التقدم الفعلي في كل زمان ومكان ولا تحكم على مجتمع ما بالجهل سفها بغير علم وتخوض مع الخائضين فيه على غير هدى فربما أنت تجهل أمورا والمجتمع هذا من افترائك عليه براء فتبين أن تصيب قوما بجهالة فتصبح نادما مع النادمين ولن تخبرك التكنولوجيا بالصدق والكذب فما عليك أنت إلا أن تستيقن الصواب من الخطأ وما عليك أنت إلا أن تراعى ضميرك اليقظ فيما يسرد من قول وأو عمل وان تتعلم مع التطور الإلكتروني بالتي هي أحسن فأنت محاسب أمام الله لا ريب ولأتدع الظن السيء والإثم الرديء ينتزع من بين اضلاعك الحق فقل الحق ما حييت فإن لم تستطع فبقلبك فإن ذلك أضعف الإيمان وما أكثر ما يعرض علينا من فتنة ظاهرة وباطنة فارفق بنفسك أن تموت على معصية وأنت على سهو وغفلة واعلم أن قدرة الله تحتويك فإن استطعت أن تساعد الآخرين فافعل ولا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلْق واعلم ان العلم ليس حكرا على أحدا ما دامت السماوات والأرضين وما فيهن و من عليهن وان استطعت التواصل مع الآخرين ومشاركة الفكر والأخذ بالشورى فافعل وان بحثت

في ثنايا العلم و وفقك الله الى بحث ذي قوة وبأس شـــديد من الخير فلا تبخل على غيرك به ولا تبخس الناس أشـــيائهم فما وصـــلت اليه مثل المعراج يرتقى عليـه غيرك من بعدك ومـا اخترعت من اختراع مثل المصـباح ينير لك ولغيرك من أجيال فلا تكسـر المصـباح عمدا متعمدا واحذر أن يتحطم كما كانت واحدة من النمل تخشـــى أن يحطمها النبي "سـليمان" وجنوده وهم لا يشـعرون واحفظ الله يحفظك فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين وتعلم ما حييت فإن فوق كل ذي علم عليم وانشـــر الوعى الثقافي فلن تخســـر الحســـنى وافتح نافذة المعرفة فمهما تحرك هواؤها فلن يصبح عاصفة ولا صاعقة مدوية فإن أسوأ ما يلاحق المرء مثل ظله جهل يرافقه فحاول أن تتعلم من أحداث الحياة ولو كنت عالما بين العلماء فلا تحقرن من الطاعات شيئا عسى أن يكون فيها رضـا الله واخفى الله سخطه في معصيته فلا تحقرن من المعاصـي شيئا عسى أن يكون فيهـا ســـخط الله وأخفى أوليـائـه من خلقـه فلا تحقرن أحـدا من المسلمين عسي أن يكون وليا لله سبحانه وقد تحتاج ألي بعض الشك في بعض الأفكار لتصـــل الى المعرفة وقال الله في كتابه الكريم "إِنَّ بَعْضَ الظَّنِ إِثْمٌ" لكن الظن الذى لا يجلب الخطيئة والمعصـــية والذنوب فلا غبار عليه فلكى تفكر أنت فقد شـــهدت بأنك موجود كدليل حســـي مادى وتلك نظرة ونظرية عرفها "رينيه ديكارت" الفيلسـوف واغتنمها الأحياء جميعا وحملوا مقولة مشـــهورة لا تغادر الآذان ألا وهى "أنا أفكر إذن

موجود" وقد ركز على الشك كوسيلة تصل بك الى الحقيقة ولطالما كان العقل مفتاحا لمغاليق الحقائق الغامضـــة فلو لم أفكر كيف أعرف إذن حقيقـة أمر من الأمور من زيفهـا فنحن فكرنـا فيمـا خلق الله من خلائق وتدبرنـا آيات الله وتوصـــلنا معا إلى وجودية خالق عظيم خلق العالم بأســـره وأبدع الخلق فلا مناص ولا جدال أنه الله الخالق الواحد العظيم ولولا الله مـا فكرنـا فيمـا جرت بـه المقـادير فلنتحرك نحو الأمـام بخطوة ثابتة في طريق التقدم البناء ولا نرجع خطوات للوراء نحو أفكار هامشية ســـوداء مظلمة معتمة فكم كان الماضـــي من الأيام أفكارا تتبع أفكارا ونعجب كيف كان الأولون والأجداد يفكرون وغدا ســـوف يفكر الأحفاد والأجيال القادمة بأفكار لم تصـل إلى مفهومنا الحالي وسـبحان من يُغيّر ولا يَتغيّر فلا راد لحكمه ولا رادع لقضـــائه وإن التكنولوجيا مثل الدّمَى تحركها أيدى مَن يلهُو بها أو مَن يضـــعها في ركن منزله الجديد فيحتفظ بها ويحافظ عليها فإن اســـتطعت أن تزيد في ميدانها راية من العلم أو تضـيف جنديا من المعرفة فافعل فلا بأس عليك ولا تقدّم علما في ظاهره الرحمة وباطنه من قِبَلِه العذاب فيحمل في ثناياه الشـــر فتهلك أمم لا تعلم بهم والله يعلمهم فاحذر من علم ذي وجهين فإنه ضـــار أكثر منه نافع لأن النفس أمارة بالسوء إلا من رحم وكلما توطدت عُرى وعلاقات وأواصر المعرفة بالتربية صـــرا المســـتقبل كالســـراج الوهاج نورا وبهاء فاللهم أغدق على العرب بما فيه الخير أكثر مما أغدقت على ســـابقيهم فنالوا

قصـــب الســـبق في الآداب والعلوم وأغدق على الغرب الأعاجم بما فيه الخير ايضـا فيتعلمون منا ونتعلم منهم كما أمسـكنا من قبل حبال التجارة نوثقها في البر والبحر واليوم نطير بالأنباء عبر عيون وأجواء الســـماء ومنذ القدم كنا عمالقة البحار والأنهار وعلماء اللغة والدين والحضـارات ولازلنا حتى تقوم الســاعة فلا يترك أحد منكم ما اســترعاه الله عليه فإن من أطفال الغرب نشـــأ تحيط به الرعاية التامة منذ نعومة أظافره ويمهد الرعاة ما وجب له من الاهتمام ونحن على هذه الوتيرة نسـير فلا تدعوا النفس والهوى والشيطان يحيدون بكم عن الطريق المستقيم فتضلّوا ومن دخل ظلمة الضـــلال لم يخرجه إلا الهُدى ومن اهتدى لله عرف غايته ومن عرف غايته حقا اســـتنار قلبه بالاطمئنان ومن اطمأن قلبه انتفع به الناس انتفاعا مبينا.

تأملات في الدين والمجتمع

يوسف أيت المعلم: *كاتب مغربي من مواليد 2007 من مدينة الصويرة.*

لا يَخفى على شـــريف علمكم ، أن الإله عندما خلق الإنســـان الأول وخالف أوامره صبَّ عليه لعناته ، وأنا أعتقد أن أقصاها وأتعسها ، هي لعنة التفكير ، فالتفكير قادرٌ على أن ينسـف بصـاحبهِ إلى أعماق الجحيم ، وإن كـان إلى جـانبـه حورُ عينٍ في جنـانِ عدنٍ ، لكن هذه اللعنة الجميلة هي ما جعلت من الإنسـان إنسـانًا ، وميزته عن كائنات الطبيعة الأخرى ، هذا ما أخبرنا به ديكارت ، وهذا ما آمن به من تبعه.

ما رأيك إذا يا صـــديقي الجميل أن نعتلي جبلا غير هذا الذي نعتليه ، ولنفكر في ما لا يجرؤ الأخرون على التفكير به ، فقد أخبرتك أن التفكير لعنة ، وليس الجميع بذلك المقدار من الشـــجاعة القادرة على دفعهم نحو هذه اللعنة ، فقد تؤدي الى هدم ما آمنوا به لأعوام وأعوام.

والأن دعنا نفكر قليلا فيما فكر فيه الإنسـان الأول والرؤى التي رآها وآمن بها ؟ ولنلقي نضـــرة خفيفة على الطريقة التي يربي بها مجتمعنا أجياله القادمة ؟

في هذا العالم ، أيوجد حقا قوة خارقة ، يد تمتد لتتحكم بأقدار البشـــر واختياراتهم وســـعادتهم وأحزانهم ، كل ما يمكن الجزم به أن الإنســان يفتقد للإرادة على نفســه ، فهل ســبق لأحدكم أن رأى الخوف والحيرة في وجه القطة؟ وهي تتأمل ورقة طائرة في الهواء ، هي لا ترى الهواء، لكنها تنظر إلى الورقة كما تنظر إلى مخلوق حيي ، وتظن أن بها روح تحركها أليس كذلك.

حال الإنسـان الأول حال هذه القطة ، لم يجد أي وسـيلة لتبرير وجوده وأفعاله وما يحيط به ، فقدْ المعنى في ذاته كإنسـان ، شـأنه شـأن الدابة يمارس رغبات جسـمه ويشـبعها خوفا من زواله دون تحقيق أكبر قدم ممكن من المتعة ، تعلق بروحه تعلق البصـــير بعصـــاه ، فالظلام يحيط به من كل زاوية والخوف يعتريه في كل ثانية عاش مســـلوب الإيمان محدود القدرة فارغ البطن ضـــال الوجهة (بعد الموت) ففكر الهمجي قليلا ، في وسيلة تحرره من خوفه وإضفاء معنى لحياته ، وفي شـيء يبادله اللوم غير زوجته ، وبعد تفكير وعناء حاك الهمجي لنفسـه ثوبا جديدا ، بخيوط الخوف والجوع والفضيلة وسماه "دينا حنيفا و إلها

رحيما". ظن أنه قادر على خلق عالم يسوده السلام والرحمة والحب ، فقط إن صنع شيء عظيم خالد لا ينام ولا يموت، لا يجوع ولا يحتاج إلى الآخرين، شيء خارج نطاق حواسه، قادر على فعل مالا يستطيع هو الأخر فعله، و يؤمن أنه قادر على تخليصه من معاناته وألآمه ، ما دام الناس اتفقوا على عبادته واحترام حرماته ، ظن هذا المسكين أن الأعضاء التناسلية ألهه فقط لقدرتها على بعث الحياة ، و المجيئ ببنين من الفراغ ، فمجدها وسجد لها وحرق البخور ابتغاء لرضاها ، لكن سذاجته لم تنتهي هنا ، فقد أبصر الرحمة في الأمطار وسبح لها ، ورأى العذاب في النار فعبدها ، إلا أنها لم تحقق له السكينة والخشوع ، فهي بعيدة عنه ، وليس بإمكانه أن يحتضنها بين دراعيه ، فعقله الصغير يحتاج إلى شيء ملموس يحضنه بين دراعيه ، ويبكي تحت أقدامه ، فنحت لنفسه ألهه – أصنام – من الطين والحجر ، وزينها بأوراق الشجر وضحى بحياته في سبيل تمجيدها .

لكني لا ألومه فمن الشقاء أن يعيش المرء مسلوب الإيمان والحيلة ، غارقا في الظلام والأوصاب والأحزان دون معنى لوجوده خاصة بعد إدراكه أنه هالك ، وأنها أيام قليلة لينتهي وجوده ، فلأي سبب سيقاتل ويغني ويتزوج طالما هو ميت، لقد فقد المعنى يا سيدي ، أعندك علم بمن فقد المعنى من وجوده.

أليس من الجنون أن يقاتل ويتغدى ويتناسل ليهرب من موته إلا أنه ملاقيها لا محالة ؟؟

وإني لألوم الخوف والجوع ؛ فكلما كان المرء خائفا هرول نحو صنم أو شجرة أو حتى بقرة لكي يعبدها ويطلب الرحمة و المغفرة ، مما سولت له نفسه ويرميه بأحلامه وأحزانه ، ويعلق روحه ووجوده به ، وإن كان معبوده بحجرة ، فلا إشكال في ذلك ، فالخوف يدفع بنا إلى الحضيض والقيام بالحماقات في سبيل الحصول على الإيمان ، فالخوف هو الدافع الأساسي لخلق الأديان.

أي عاقل هذا الذي يربط حياته وأماله بل أعمق من كل هذا يربط روحه بشيء غير نفسه ليحرره من" نفسه " ويخلق له السعادة (السعادة والمعاناة في أنفسنا من كانت نفسه راضية عاش في جنة وسط الحروب ،ومن كانت نفسه أمارة بالسوء عاش جحيما في قصره) ،"هذه وجهة نضري وأنت حر يا عزيزي في انتقادها أو تقبلها"، الخوف من الثانية التي تلي تلك التي عاشها هي السبب في خلق ما خلق والإيمان بما آمن ، كما أن الإيمان والتقوى يرتبطان بالحالة المادية ، والأمثلة كثيرة حتى في زماننا هذا ، فكلما كان الإنسان فقيرا زاد تعلقه بدينه ومؤمنا بربه ،ويصلي ويحرق البخور ويرتل الأناشيد ويبكي لطلب زاد يشفيه غراغير بطنه ويسكت صراخ زوجته في وجهه. فلو عاش هذا

المســـكين مملوء البطن ، مرتــاح البــال لمــا فكر في فعلتــه هـذه. المؤســـف أنه يخيل لنا أننا تخيطنا هذه الوثنيات ، لكن الكثير منا مزال في عبادة أعضـائه التناسـلية ، ويسـعي إلى تلبية غرائزه كحيوان بري ، وآخرون يهتفون باسم الحرية، الجمال، الذات، صدق ماركس حين قال" إنّ التاريخ يعيد نفسـه مرتين, مرة على شكل مأسـاة ، ومرة على شـكل مهزلة "

نعم يا صـديقي لقد صـدق ماركس فالتاريخ يعيد نفسـه على شكل مهزلة ، ولا تتوقف هذه الإعادة فقط عند ما نؤمن به بل أكثر من ذلك ، فكل شيء يعيد نفسه حتى النظام التربوي ، يعيد نفسه ، ولا يخفى عليك ، أن شـأن الوالدين ، شـأن المصـعد الذي يقود المرء إلى القمة أو القاع ، فهم السـلم الذي يتحكم بمصـير الطفل وسـبب سـعادته أو تعاسـته ، وأنه منا من وجد أهله سـلما يؤدي به إلى الشـموخ في القمة، ومنا مسـاكين فتحوا أعينهم على ســـلم يؤدي بهم إلى الحضـــيض، بخلافاتهم بعقدهم الـنـفســـيـة بـمـطـالـبـهـم الـخـارقـة لـلـطـبـيـعـة الإنســـانـيـة. ألسنا ببشر؟ فمالي أبصـر في أعينهم أننا مجرد دمى و صـناديق تعبّأ بـأحلامهم وأفكـارهم الثقـافيـة، وإن كـانـت لا تتوافق مع مصـــالحنـا الشخصية؟

ما أن يخرج الواحد من رحم أمه حتى يجد نفســـه أمام حقائق كونية ، تُبنى عليها حياته وحياة من يأتي من بعده ،فهم صــفحة العلم ،و نحن صــفحة الجهل . يدهســون أفكارهم في عقولنا كما يحشــو الشــره أمواله في بطنه ، ولا فرق إن تعلمنا طوعا أو كرها ، وإن تعلمنا نفعا أو ضــرا ـــــ هو نافع في نضــرهم ـــــ همهم الوحيد نقل ثقافتهم ، ومحرماتهم ، ومقدساتهم إلينا ، فقد قدسوا الملح وطلبوا منا أن نشهد لهم أنه ما أن يضـــعه الواحد من على ثيابه حتى تُبعِدَ عليه حســـد الناس وأمراض الدنيا وخبثها، و طلبوا تقديس مالا يســتحق التقديس ، واحترام مالا يغني من جوع ومن سقم ، فإن رفضنا ذلك أصبحنا جيلا متخلفا ، وزعموا أننا لم نَغرف بأيدينا من إيناء المعاناة ، لنروي به غليل وجودنا ونحافظ عليه ، فما نحن إلا أبناء الأمس ، و كل ما نفتح عليه أفواهنا ، نجده ساجدا على ِشمال أقدامنا أو يمينها .

فلن يُغلقو أجفانهم ، ولن يطيب لهم موت ، ما لم نضـــرب بالعصـــا التي ضـــربوا بها ، وأســـفاه على ما وجدانهم عليه ، وعلى ما وجدناهم فيه ، قوم أســس نظامه التربوي على «فكرة المجتمع الهرمي» ، فإن تأخرت بثانية عن أخيك التوأم ، في ســـباقكم المنوي فهنيئا لك ، أنت الجاهل والغبي ، وهو العالِم والاحترام له وحده ، وجارك أدرى بمصلحتك منك فقط لأنه جارك ، ولأن الرسول(صلى الله عليه وسلم)

قد وصـى عليه ، لربما لم تصـادف أدانهم قوله عن الرحمة واليسـر في معاملة هذا المسكين ، ولربما سمعوا عنها لكنهم كقرشـي يضـع أصـابع في أدنه حدر سماع للقرآن وفاءً للات والعزى ، لكني والله لا ألومهم ، فما فعلوا إلا ما طُلب منهم ، وما نقلو إلا ما عَلَّموه لهم ، هم ببغاوات جيلنا ، وشـرفاء زمانهم ، وأقصـى ما يطلبون أن نصـير مثلهم ونرتل أناشيدهم ، فنحن أبنائهم ، الفضل والشكر لهم بتلبية حاجياتنا اليومية ، وحمايتنا من صقيع الشتاء ، ومن حرارة الصيف، أليست هذه خلاق هي العظماء أم أنا على خطأ ؟ هل نحن أن خسر أمام شهواتنا أم هم ؟

فلماذا وعلى ماذا يجب أن نكون ممتنين، هل على إحضـارنا من رحم العدم إلى هذا الجحيم أم لأنهم يبدلون أقصى ما في وسعهم لتحقيق بعضـا من حاجياتنا اليومية كتكفير لهم على إحضـارنا إلى هنا ، حقا لا أدري على ماذا يجب أن نكون ممتنين .

آه يا صـديقي ، كدت أن أنسـى يا عزيزي أن أخبرك أنك ل تكون بارا بهم ومحبوبا ، طالما أنت إنسان يسعى للحرية لتحقيق أحلامه الخاصـة لعيش الحياة التي تريدها ، لا والله لا ، يجب أن تكون دمية تُحَرَّك بأربع خيوط أولهما لأمك الثاني لخالتك الثالث لأبيك والرابع لعمك ، فإن خطوت خطوة خارج إرادة هذه الخيوط ، الويل ثم الويل لك فقد أصـبحت عاق بأهله عاهة على المجتمع بلاء من ربهم ، فنحن

مجرد دمى ، ويجب أن نَتَحرك وفق أوامرهم وإرادتهم حتى ننال الرضا والمحبة والغفران .

فإن صـبرت على كونك دمية هنيئا لك ، فقد انتقلت إلى المرحلة الثانية ، وتسـمع لتلك النصـائح القادرة على نحت الصـخور ، وتعكير مزاجك لأيام وأسـابيع ، من ذاك الذي يخفي تحت فسـتان الحب و النصـيحة والغيرة ، أحقاده وأمراضـه النفسـية ، فما أن يلتقي وجهك بوجهه حتى يبدأ في نصحك ـــ حشاه أن يكون نصحا ـــ . ومن هذا المحظوظ الذي لم يُغتصـب غشـاء أدنه . بهذه التعليمات السـخيفة هذا صـواب هذا خطأ هذا يقال هذا لا يقال فلان أعقل منك علان أفضـل منك ما بال الندبة التي تحت جفونك أنت سـمين أنت نحيف لا أدري هل كان يتوجب على الله أن يشـاورهم في خلقه حتى ينال رضـاهم أم ماذا؟ لكن السؤال الذي يفرض نفسه أيستحق حقا أن نلد أبناءنا وماذا سيستفيد العالم من أبنائنا ، والأزقة ممتلئة بالأيتام، كن رحيما وأنقده من معاناته ولا تكن حيوانا يسعى لإشباع غرائزه، وختاما أقول كما قال أبو العلاء المعري " وأرحت أولادي فهم في نعمت العدم " .

الفَـهْـرَسْ

إهداء 07

تمهيد 09

نقد العقل التكنولوجي ..... هشام أباخو 11

مشكلة الهوية في العصر الرقمي ..... هبة بولنوار 41

عقل تحت حصار ناعم ..... أحلام سارة 57

التعليم والتنوير: هل تعزز مناهجنا التفكير النقدي؟ **..... كوثر ملوك 71**

نقد نيتشه للأخلاق التقليدية ..... حسام دهبي 91

الإنسان بين قسوة الواقع وعبثية الوجود ..... خديجة زكري 121

بين الواقع والخيال ..... أحمد عبد الحكيم محمد علي 137

تأملات في الدين والمجتمع ..... يوسف أيت المعلم 161

صحوة العقل

مقالات

كِتاب جماعي يسْتكشف تحوّلات الفكر الإنساني في ظلّ تحديات العصر الرقمي، مِن هيمنة التِكنولوجيا وتشويش الهوية، إلى أسئلة الأخلاق والمعنى والواقع.

تَسعى فُصول الكِتاب إلى تفكيك حصارات العَقل المعاصر، سواءً عبر أنظمة التعليم أو سُلطات الخِطاب، وتطرح تأملات نقديّة في علاقة الإنسان بالمُجتمع والدّين، بين قُسوة الواقع وغُموض الوجود.

إنه دعوة للتفكير الحرّ، ونقد المُسلّمات، وبحث عن يقظة فكرية تعيد للعقل إنسانيته

ISBN: 978-9969-9926-7-0